تساؤلاتٌ

حول الحرب الصليبيّة الجديدة

للشيخ يوسُف العُيَيْري

بيت المقدس



1443 هـ 2022 م

Baytalmaqdiss44@gmail.com

بيت المقدس

تساؤلاتٌ حول الحرب الصليبيّة الجديدة

الشيخ

يوسُف العُيَيْري

رَحمهُ الله

الطبعة الثانية 1443هـ

بيت المقدس

الفهرس

مقدمة الناشر

تخرج بيت المقدس طبعة جديدة لكتاب الشيخ يوسف العييري – رحمه الله- بعنوان "تساؤلاتٌ حول الحرب الصليبيّة الجديدة"، وذلك بعد إخراج طبعة أخرى جديدة لكتابه "حقيقة الحرب الصليبية الجديدة"، نسأل الله أن ينفع بهما ويتقبل سعي كاتبهما.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبينا مُحَّمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمُقَدِّمَة

الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله، وبعد:

حين تتابعت الانسحابات في أفغانستان من قِبَل الإمارة الإسلامية وبدأت تفقد بعض المكتسبات ومنها المدن والآليات، دَبَّ اليأس إلى كثير من المسلمين، وانتابهم شعور بالهزيمة، ودنوُّ نهاية المجاهدين هناك، ومن خلال هذا الشعور بدا همسٌ هنا وهناك بأنّ المجاهدين قد أخطؤوا حساباتهم وأنهم فوجئوا بما لم يتوقّعوه، وأنهم كانوا قد تعجّلوا وجَرُّوا إلى أنفسهم إلى معركةٍ لم تكن متكافئة.

ولَمَّا كانت مثل هذه الْخَطَرَات لم يَسْلَم منها الأكثرون –حتى من بعض أهل العلم– فقد كان لزاماً أن نقف معها بعض وقفاتٍ هي بمثابة محطات للمتأمّل في هذه القضية وفي غيرها.

ولأهميتها فقد نشرناها ليتمّ بذلك تأصيلُ مثل هذه القضايا المهمة والتي لا تَمَسُّ واقعنا الآن فحسب في أفغانستان، بل لتكونَ تأصيلاً في الجهاد إلى جانب ما كُتِبَ فيه من تأصيلٍ شرعي في هذا العصر.

والآن ندلف إلى مدخلٍ لهذه التساؤلات...

مَدْخَلٌ

يجب أن نتناول هذه القضية بحياد وإنصاف وواقعية بعيداً عن الإفراط في التفاؤل والتماس الأعذار، وبعيداً أيضاً عن التحامل والتعجّل بردّ فعلٍ عكسيّ.

فمن حيث الواقع لا شكّ أنّ الانسحاب الذي حدث ليس كله على وفق خطة مرسومة لم تتخلف، وليس كذلك انسحاباً اضطرارياً مفاجئاً.

فلقد كان كثيرٌ من الانسحابات قد خطط لها ولكن ربما لم تنل من الوقت الكافي لذلك التخطيط والترتيب ولم تتم أيضاً على الوجه المطلوب وإن كان كثيرٌ منها قد حالفه النجاح بدرجة جيدة ولله الحمد تصل إلى 80 %، ومن المهم أن نشير إلى أنّ تلك الانسحابات الناجحة في معركة بهذا الحجم وبهذه الأعداد الضخمة يعد وحده نصراً منفرداً.

نعم، قد وقعت بعض الأخطاء لا حاجةَ للإفصاح عنها الآن كما أنها قد وقعت بعض الخيانات مما لا يَسْلَم منه جيشٌ مهما بلغت نزاهته فقد كان في جيش مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم منافقون، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: 101].

ولَمّا خرج النبي ﷺ إلى أُحُدٍ رَجِعَ عبد الله بن أُبيّ المنافق بثُلُث الجيش، فماذا يقال في قيادة ذلك الجيش أَتُراها أخطأت الحسابات؟ حاشا رسول الله ﷺ أن يَرِدَ في حقّه ذلك! لكنه بشرٌ من البشر، قد يقعُ له ما لم يَعلم أن سيقع.

فإذاً لا يُعَدّ ما وقع من خيانات وأخطاء في حسابات المجاهدين ولا ما قد يقع من ذمم قد تُشْتَرَى كذلك، حسبُهُم أن يحاذروا ذلك ما استطاعوا وهم إن شاء الله فاعلون.

وقد قال الله في الصحابة ﷺ: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152]، فما لنا نتطلّب في هذا الزمان جهاداً ومجاهدينَ أَنْقَى وأَتْقَى مما كان في ذلك الجيل المثالي؟

ومن الشجاعة القول بأنّ إلجاء المجاهدين إلى الخروج من المدن هو نوع انتصارٍ للحملة الغاشمة الظالمة ولكنه انتصارٌ جزئي، وتَقَدُّمٌ محدودٌ في مرحلةٍ من مراحل الحرب لا ينبغي بحال أن يكون انتصاراً كلياً يقابله هزيمةٌ ساحقةٌ، ولا حاجةَ للإطالة في ذكر فوائد الانسحاب، فبالإمكان مراجعة ما نشرناه نحن مركز الدراسات بعنوان (مُلَخَّص الموقف قبل وبعد الحرب)، وكذلك ما نُشِرَ في بعض المواقع من التحليلات الجيدة كمقالٍ بقلم أبي عُبَيْدة القرشي (مَن يهزُم مَن في أفغانستان؟)، فقد اشتمل على تحليل عسكري مقنع.

هَل اسْتُدْرِجَ الْمُجَاهِدُونَ إِلَى مَعْرَكَةٍ غَيْرِ مُتَكَافِئةٍ؟

إنّ دعوى أنّ المجاهدين جَرُّوا إلى أنفسِهِم أو جَرُّوا أُنْفُسَهُم إلى معركةٍ غير متكافئةٍ أو اسْتُدْرِجُوا إليها، يستلزم الوقوف مع ما يلي:

1. ماذا يعني قائل ذلك بقوله (جَرُّوا)؟ فإن كان المقصود ما حدث في الحادي عشر من سبتمبر من الهجوم، فهو تأكيدُ الدعوى الأمريكية بأنّ فاعل ذلك هم المجاهدون، وهذا ما لم يعترفوا به ولم يُثْبِتْهُ الأمريكان أيضاً بدليلٍ ماديٍّ قضائيٍّ، وقد اسْتَعَرَت الحربُ وهم لا يملكون أيَّ مؤشّرٍ يَدلُّ على هوية الفاعلين.
2. على فرض صحّة ما نُسِبَ إلى المجاهدين من هذا العمل؛ فهل كان ذلك حقاً هو الدافع لأمريكا أن تأتي إلى أفغانستان؟ إنّ أمريكا كانت منذ زمنٍ تريد وَأْدَ طالبان والجهاد.

وقد صرّح وزير الخارجية الباكستاني الأسبق نواز زينك أنّ مسؤولين كباراً في الحكومة الأمريكية أَبْلَغُوهُ في منتصف شهر يوليو/تموز من عام 2001م بأنّ الولايات المتحدة ستتخذ إجراءاتٍ عسكريةٍ ضد أفغانستان بحلول منتصف شهر أكتوبر/تشرين الأول 2001م، وقال الوزير الباكستاني السابق إنّ المسؤولين الأمريكيين أبلغوه بالخطة أثناء انعقاد مؤتمر لدول مجموعة الاتصال الخاصة بأفغانستان الذي عُقِدَ تحت رعاية الأمم المتحدة في برلين.

وقال نواز: إنّ المسؤولين الأمريكيين أَبْلَغُوهُ أنه إذا لم يتمّ تسليم بن لادن على الفور فإنّ الولايات المتحدة ستقوم بعملٍ عسكري لاعتقاله أو قتله هو والملا عُمَر زعيم حركة طالبان، ويُشير المسؤول الباكستاني إلى أنّ الهدف الأوسع من تلك العملية سيكون إسقاط حكومة طالبان وتنصيب حكومةٍ انتقاليةٍ من الأفغان المعتدلين من الممكن أن يتزعّمها ملك أفغانستان السابق ظاهر شاه.

وأوضح المسؤول الباكستاني السابق أنّ واشنطن سَتَشُنّ عملياتها من قواعد في طاجكستان حيث يقيم عددٌ من المستشارين الأمريكيين بالفعل.

وقال: إنّ أوزبكستان ستشارك في العمليات وأنّ سبعة عشر ألف جندي روسي يقفون في حالة استعداد، مشيراً إلى أن العمليات العسكرية ستتم قبيل سقوط الثلوج في أفغانستان بحلول منتصف أكتوبر/تشرين الأول على أكثر تقدير.

وشكك المسؤول الباكستاني السابق في إمكانية تراجع الولايات المتحدة عن خططها حتى إذا تمّ تسليم بن لادن على الفور من قِبَل الإمارة الإسلامية.

وقد نقلت (البي بي سي) هذا التقرير عن دبلوماسي باكستاني سابق قوله: بأنّ الولايات المتحدة كانت تخطط لعمليات عسكرية ضد أسامة بن لادن وحركة طالبان حتى قبل وقوع هجوم الحادي عشر من سبتمبر.

نعم، ربما لم تكن أمريكا تستطيع جمع كل هذا التحالف والتأييد وبهذه السرعة لولا أحداث الحادي عشر من أيلول، لكن هذا لا يعني أن تكون تلك الأحداث سبباً لجرّ أمريكا ومن ثم إلى معركةٍ غير متكافئة لا سيما إذا أُخِذَ بالاعتبار ما لأمريكا من أطماع في المنطقة فليس ما حدث إذاً سوى تعجيلٍ لمجيء العدو إن صدق أنه تعجيلٌ.

وما الذنب الذي ارتكبه المجاهدون أو الإمارة الإسلامية إذا كانوا هم وراء تلك الضربات، ففعلهم هذا هو من قبيل جهاد الدفع لا من جهاد الطلب، فالعدو يحاصر أرضهم ويقتل المسلمين في أفغانستان بالحصار وبدعم التحالف، فإمّا أن تنتظر الإمارة أَجَلَهَا المحتوم أو تدافع عن نفسها بكل الوسائل المتاحة، ففعل المجاهدين لا يُعَدُّ تعجّلاً بل هو دفاعٌ عن النفس، والدفاع عن النفس لا يحتاج إلى تردد، وقد بَيَّنَ الشيخ أسامة حفظه الله في خطابه الأخير من خلال قصة الذئب والحَمَل حالنا وحال أمريكا معنا، فكل ما

نفعله بأمريكا هو من قبيل الدفاع عن النفس، فكيف يُقال لِمَن دافع عن نفسه بأنه تعجَّلَ وجَرَّ على نفسه حرباً والحرب قائمةٌ ضده منذ سنوات؟

إذا اعتبرنا ما حدث في الحادي عشر هو من أعمال المجاهدين وعلى اعتبار أنه عملٌ جهاديٌّ لا غبار عليه -أي بعيداً عن الخلاف في أصل مشروعيته- فهل هو على هذا الأساس عملٌ مُتَعَجِّلٌ جَرَّ على المجاهدين معركةً غير متكافئةٍ؟

إنّ التعجّل أيضاً هو الحكم على ذلك من غير تأمّلٍ ونظرٍ وبحثٍ وتَحَرٍّ، ولأجل تجليةِ المسألة سنناقشها فيما يلي، ولكن بناءً على افتراضين:

الأول: أنّ ما حدث في الحادي عشر هو من عمل المجاهدين.

الثاني: أنّ هذا العمل جهادٌ مشروعٌ لا مِرْيَة فيه.

هذان الافتراضان لا بُدّ من استصحابهما عند قراءة المناقشة الآتية من أجل أن تتضح الرؤية ويتجلّى الحكم ويُفقه الاستدلال، وإلا فمَن خالف مثلاً في كون ما حدث جهاداً مشروعاً لا ينبغي أن يقرأ المناقشة حتى يحرر المسألة في أصلها، مما قد تناوله آخرون يمكن الرجوع إلى ما كتبوا فيه أو عليه أن يقرأ مُتَنَزِّلاً على القول بذلك، (مع أنّ هذه المناقشة وإن كانت في هذه القضية غير أنها تطرح ما يمكن الاستفادة منه في أكثر من قضية).

فأولاً: ما معنى التكافؤ؟ هل التكافؤ هو المساواة في العُدّة والعَتَاد والرجال أيضاً؟

إنّ التاريخ يشهد أنه ما من معركةٍ انتصر فيها المسلمون على عدوهم وكانوا أكثر منه عدداً وعُدةً، بل العكس، لا سيما في المعارك المشهورة كمعارك النبي ﷺ بلا استثناء، ومعارك أصحابه رضي الله عنهم كالقادسية واليرموك وغيرها في التاريخ كثير..

بل لَمّا أُعْجِبَ المسلمون بكثرتهم في حُنَيْنٍ هُزِمُوا أول الأمر، كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25)﴾ [التوبة: 25].

وإنّ انتظار المعركة المتكافئة حتى ولو نسبيا كما قد يقال هو في الحقيقة يؤدي في النهاية إلى أن لا تكون معركة أصلاً، بل العدو يزداد قوةً وما يزيدنا الوقت إلا ضعفاً من حيث المنظور العسكري إذ هو المقصود هنا بالتكافؤ وأمّا من حيث جوانب أخرى فلا ينبغي إدراجها في الحساب هنا لأنّ ذلك لا يُعَدّ تكافؤاً.

ثانياً أين التكافؤ في غزوة مؤتة؟

والمسلمون ثلاثة آلاف والعدو مائتا ألف نسبة لا تخطر على بال (100: 1,5)، وإن شئت قلت كُلُّ مجاهدٍ من المسلمين يقابل أكثر من ستة وستين مقاتلاً من العدو، ومع ذلك قاتل المسلون وأبلَوْا بلاءً حسناً حتى قُتِلَ قادة المعركة كلهم -زَيْد وجعفر وابن رواحة رضي الله عنهم أجمعين- ولقد كانوا ترددوا لَمّا عَلِمُوا بكثرة عدد العدو لكنّ ابن رواحة رضي الله عنه شَجَّعَهُم على المضيّ، ولَمّا رَجِعُوا لم يعاتبهم النبيُّ ﷺ على دخولهم المعركة غير المتكافئة، بل العكس؛ فإنّ المسلمين استقبلوهُم يَحْثُونَ عَلَى الْجَيْشِ التُّرَابَ، وَيَقُولُونَ: يَا فُرَّارُ، فَرَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**لَيْسُوا بِالْفُرَّارِ، وَلَكِنَّهُمْ الْكُرَّارُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى**".[1]

ومن فوائد هذه الغزوة أنّ من مقاصد الجهاد إظهار عزّة الإسلام وهَيْبَتِهِ وقوته وأنّ أهله لا يهابون الموت وإن لم يتحقق بذلك نصرٌ حاسمٌ كما هو الشأن في هذه الغزوة.

[1] السيرة النبويّة لابن هشام (383/2)، البداية والنهاية (412/6)، وضعّفه الألباني في دفاع عن الحديث (31). وورد عند الترمذي: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَاخْتَبَيْنَا بِهَا وَقُلْنَا: هَلَكْنَا، ثُمَّ أَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، نَحْنُ الْفَرَّارُونَ، قَالَ: "**بَلْ أَنْتُمْ الْعَكَّارُونَ وَأَنَا فِئَتُكُمْ**". (1716).

إنّ عـدم التكـافؤ هـو حـين يُقَصِّرُ المسـلمون في إعـداد أنفسـهم ولا يبـذلون الوِسْـعَ والطاقـة في ذلـك، أمّـا حـين يأخـذون بقولـه تعـالى: ﴿وَأَعِـدُّوا لَهُـمْ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ مِـنْ قُـوَّةٍ﴾ [الأنفـال: 60]، فإنّ ما فوق ذلك ليس مما كُلِفُوا به.

ثالثاً: مَن ذا الذي كان يجزم بما حدث حتى يُقال إنّ المجاهدين جَرُّوا لأنفسهم ذلك؟

إنّ أمريكـا قـد ضُـربت أكثـر مـن مـرة وقـد اتّهمـت المجاهـدين في أفغانسـتان في كـل ضـربةٍ ومع ذلك لم تزد على إطلاق صواريخ على أفغانستان.

ولقـد كـان مـن المحتمـل ذلـك حـتى بعـد حـادث الحـادي عشـر وهـي وإن كانـت أكـبر بكثـير ممـا سبقها غـير أنّ نـزول أمريكـا الميـدانَ لم يكـن خيـاراً قـوياً بـل هـو خيـار مطـروح و«سـيناريو» محتمـلٌ لا غـير، وإذا كـان الأمـر كـذلك فـلا حاجـةَ للقـول بأنّ مـا حـدث كـان قطعـاً مـؤدياً إلى ما صار عليه الأمر الآن.

وهاهنا سؤال: هل المسلم يقف عن قتال العدو والنكاية فيه خشية الردِّ من قِبَلِهِ؟

نجيب عنه في الفصل القادم إن شاء الله الذي بعنوان: إذا ترتَّبَ على الجهاد رَدٌّ من العدو.

إِذَا تَرَتَّبَ عَلَى الجِْهَادِ رَدٌّ مِنَ العَدُوّ

أولاً: لقد خرج النبي ﷺ يوم بدرٍ يريد عِيرَ قريش، إذاً لقد كان هدفه ضربة للعدو عسكرية واقتصادية ولنتأمّل هذه الغزوة:

فلقد كان من المحتمل، بل من شبه المؤكّد أنّ النبيّ ﷺ حين يُغيرُ على قافلة قريش التجارية أنه سيكون ردّها عنيفاً قاسياً لأنها لا تحتمل المساس بتجارتها واقتصادها.. ويؤيد ذلك الواقع حيث استنفرت قريش قوتها ورجالها للذود عن تلك القافلة وخرجت بخيلها وخُيَلَائها لتؤدّب من هَمُّوا بذلك، مع هذا كله ومع أنّ النبيّ ﷺ يدرك ذلك؛ فهل اعتبرَهُ مانعاً من تنفيذ تلك العملية؟!

بل إنّ غزوة أُحُدٍ ما هي -في الحقيقة- إلا ردّ فعلٍ من قريش على غزوة بدر، وقد كانوا ينوون اجتياح المدينة، وحصلت المصيبة في هذه الغزوة على المسلمين فهل نزل العتاب من السماء على تعجّل المسلمين في بدر وجَرِّهم العدو إليهم؟ أَم أنّ العتاب كان على معصيةٍ القائد والتعجّل إلى الدنيا؟

وإذا كان المسلمون انتصروا في بدر فإنهم لم يكونوا يقطعون بهذه النتيجة. فلو كانوا أُصيبوا، فهل كان ذلك لِيُغَيِّرَ الحكم في أصل خروجهم للعير بمعنى أن يقال: إنهم إذاً جَرُّوا قريشاً لمعركة لا يكافئوهَم فيها وأثاروها عليهم وتعجّلوا في ذلك؟ والشيء نفسه يُقال في غزوة حُنَيْن وتبوك وكذلك مؤتة.

ثانياً: إنّ هذا المنطق -وهو خشيةُ أن يجُرّ عملٌ من أعمال الجهاد ردَّ فعلٍ عنيفٍ من العدو- قد يؤدي في نهاية المطاف إلى تعطيل كثيرٍ من مظاهر الجهاد، بل حتى الجهاد بالكلمة والقلم والنصح والبيان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فما من عملٍ من تلك الأعمال التي لا يُحبّها الكافرون أو الجاهلون والمعرِضون إلا ويقابلها ردّ فعلٍ منهم تتفاوت شدةً وضعفاً، وإذا علم العدو الكافر أو المخالف الجاهل أنّ هذا الحسّ -وهو خشية ردّ الفعل- يُسيطر على أهل الحقّ فإنه سَيُشيع الإرهاب الفكري

وبثّ الرعب ويُشجّع على ترسيخ هذا الإحساس حتى يبني له سياجاً دفاعياً لا يُكلّفه سوى حملات إعلامية، إضافةً إلى بعض التأديبات التي تؤكّد أنّ ردّ فعله قويةٌ.

ومَن أخذ بهذا المنطق المشار إليه، يَلْزَمُهُ أن لا يؤيّد أيّ عملٍ في فلسطين لأنّ ردّ الفعل اليهودي عنيفٌ. والأمثلة كثيرةٌ، تقع كل يوم؛ فما من عملية للمجاهدين في الأرض المقدّسة يُقتل فيها يهوديٌّ واحدٌ أو يُجرح إلا ويقابلها قصفٌ عنيفٌ ربما يسقط به عشرات وتضييق على العمّال الفلسطينين وغير ذلك.

وهكذا كُلُّ عملٍ من هذا القبيل، ولئن كان هذا المثال (فلسطين) يناقش به الإسلاميون، فإنه حجةٌ أيضاً على القوميين؛ فما من عملٍ من أعمال المقاومة (المشروعة) -كما يسمونها- إلا وهي من جنس أعمال الحادي عشر، بل ولا تَرْقَى أن تكون مثلها من حيث المكاسب.

وكذلك الحال في الجهاد القائم في أفغانستان من الثُّلّة المؤمنة ضد قوى الكفر ومَن تحالَف معهم، فإنها مقاومةٌ مشروعةٌ على وفق جميع القوانين، وبمثال فلسطين يناقش كل من يؤيّد قضية فلسطين من الحكومات التي تزايد عليها فما يجوز في حقّ اليهود ويشرّع ويؤيّد ويدعم فأَوْلَى به من وراء يهود وهو رأس الأفعى اليهودية الغاشمة.

ثالثاً: لمَ نقيس الأمور بنتائجها الآنية الظاهرة؟

وإنما الميزان القسط هو تقييم أصل العمل إن كان مستوفياً للشروط وليس يُضيرُهُ بعد ذلك أن لا يحقق الهدف منه.

إنّ القياس بالنتائج فحسب ليس من شأن المؤمنين الذين يعلمون أنّ النتائج بيد الله تعالى، وما على العبد إلا أن يجتهد ويتحرّى، ومن ذلك الاستفادة والاعتبار من التجارب السابقة والمشاورة بين أهل الخبرة في ذلك ثم يعزم ويتوكّل على الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159)﴾ [آل عمران: 159] فإذا أخذ المؤمن بذلك، فإنه قد اجتهد فإن أصاب فله أَجْرَان وإن أخطأ فله أجرٌ واحدٌ، وأمّا أن يُقال بعد ذلك إنّ عملك حين لم يؤدِّ النتيجةَ المطلوبة أو ترتَّب عليه مفسدةٌ معيّنةٌ فهو خطأٌ في أصله وتعجُّلٌ، فإنّ هذا خللٌ في التقييم والميزان، والله

تعالى يقول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: 152]، ويقول: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: 35]، ويقول: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: 85].

والله تعالى قال لنبيّه الذي يَتَنَزَّل عليه الوحي ﷺ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: 48]، وقال: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (23)﴾ [فاطر: 23]، وقال:﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (40)﴾ [الرعد: 40].

قال الطبري رحمه الله: (يقول تعالى ذكره لنبيّه مُحَّد ﷺ: (وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ) يَا مُحَمَّدُ فِي حَيَاتِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ مِنَ الْعِقَابِ عَلَى كُفْرِهِمْ (أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ) قَبْلَ أَنْ نُرِيَكَ ذَلِكَ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى طَاعَةِ رَبِّكَ فِيمَا أَمَرَكَ بِهِ مِنْ تَبْلِيغِهِمْ رِسَالَتَهُ)[2]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)﴾ [القصص: 56]، والآيات في أنّ العبد ليس عليه إلا ما أُمِرَ به وليس عليه النتيجة كثيرةٌ.

وفي الصحيحَيْن عن النبيّ ﷺ: **"فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ"**.[3]

فهل يا ترى مثل هؤلاء الأنبياء: يمكن أن يخطر على بال مسلمٍ أنهم قصَّروا في الأخذ بالأسباب في دعوتهم؟ حاشاهُم وربي من ذلك.

وإذا هُزِمَ المسلم وانكسرَ وابتُلِيَ بقتلٍ أو كَلِمٍ أو أَسْرٍ فهذا هو شأن الجهاد، ولا ينبغي أن يُعَدَّ ذلك من خطأ الأصل ما دام مَبْنِيّاً على أُسسٍ صحيحةٍ.

والله تعالى يقول﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141)﴾ [آل عمران: 139-141]، فذلك كُلُّهُ من حِكَم الجهاد، ومن مُراد الله تعالى فيه، فما لنا نختزل كل ذلك في النصر الأَرضيّ العاجل؟

---

[2] (13/ 172).

[3] البخاري (5705)، ومسلم (220) واللفظ له.

وهـذه الآيات مـن سـورة آل عمـران، لنـا معهـا وقفـاتٌ إن شـاء الله لِعَظَـم مـا فيهـا مـن المعـاني التي قد نَغْفَلُ عنها.

وفي الصحيح عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما أنّ النَّبِيَّ ﷺ قال: **"مَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فَتَغْنَمُ وَتَسْلَمُ إِلَّا كَانُوا قَدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أُجُورِهِمْ، وَمَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ تُخْفِقُ وَتُصَابُ إِلَّا تَمَّ أُجُورُهُمْ"**.[4]

ولعـلّ الـبعض حـين سمـع بـبعض الأخبـار مـن قتـل بعـض المجاهـدين أو أَسْـرِهِم أو حـتى تعـرّض بعـض العوائـل لـلأذى والقصـف والتشـريد أصـابه مـن الأسـف والحـزن مـا قـد أنسـاهُ بعضَ تلك المعاني المشار إليها وربما أَوْقَعَهُ ذلك في الوقيعة فيمَن لا سبيل له عليه.

نعـم، إنّ القلـب لَيَتَقَطَّـعَ أسًـى وألمـاً حـين يَبْلُـغُ المسـلمَ خـبرَ إصـابةٍ لأخيـه أو أُختـه وإن دَقَّـت، لكـن لا ينبغـي بحـالٍ أن ننسـى مـا في هـذه الآيات والأحاديـث مـن البيـان الجلـي للمعـاني العاليـة الـتي علينـا أن نتعلّـق بهـا، وأن مـا يُصـيب هـؤلاء هـو بإذن الله مـن الاصـطفاء واتّخاذ الشهداء أو الابتلاء الذي تُمَحَّص به الذنوب وتُرْفَعُ به الدرجات ويعتزّ به الإسلام.

وقـد كـان النسـاء يُجاهـدنَ مـع رسـول الله ﷺ مـع احتمـال أَسْـرِهِنّ وقَـتْلِهِنّ، وفي صـحيح مسلم عن عمران بن حصين ﷺ قصة أَسْر امرأةٍ من المسلمين.

ونُبشّـر المسـلمين أنّ نسـاء المجاهـدين هُـنّ بأنفسـهن مجاهـداتٌ مُحْتَسِـبَات قـد تَـرَبَّيْنَ علـى احتمـال كـل احتمـالٍ بعـد الاسـتعانة بالله تعـالى، ونسـأل الله أن يحفظهـنّ وأن يـربط علـى قلوبهنّ وأن يُنْزِلَ عليهنّ السكينة وأن يَزيدهنّ قوةً وثباتاً واحتساباً وأجراً كريماً.

وهكـذا كُـلُّ مَـن يَنفُـرُ للجهـاد عليـه أن يُـربي نفسـه ويوطنّهـا علـى احتمـال المتغـيّرات، وأن يجعـل في حسـابه جميـع التوقعـات وأن يكـون لديـه مـن مـدد الإيمـان والتوكّـل وشـيء مـن العلـم ما يثبّته في الملمات.

[4] (1906).

ومن النماذج التي تُذكَرُ في هذا الصدد

إحدى الأخوات العربيات في قندهار تعزم على زوجها وتستحلفه بالله أن إذا دخل في عملية استشهاديةٍ أن يَصْحَبَهَا معه لتُعينَهُ على الجهاد وتنال الشهادة معه في سبيل الله، فيكتب الله أن تقع قذيفةٌ من قذائف «راعية السلام» و«حامية حقوق الإنسان» فتقتلهما جميعاً، جمعهما الله في منازل الشهداء... آمين.

وإذا كان هذا شأن المؤمنين فإن من صفات غيرهم أنهم تستخفهم النتائج ليلقوا باللآئمة على الأعمال التي أنتجتها والعاملين فيها.

كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (156)﴾ [آل عمران: 156] وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (168)﴾ [آل عمران: 168]، وقوله جَلَّ ذكره: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (72) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (73)﴾ [النساء: 72-73].

مَن كَسِبَ المعركة

على ضوء ما تَقَدَّم بيانه فيما سبق -وعلى فرض أنّ هجوم الحادي عشر كان من المجاهدين- فإنّ ذلك الهجوم الذي نُفِّذَ في أمريكا بالمنظور العسكري كَسْبٌ للمبادرة في المعركة، وهذا مهمٌ لدى العسكريين وربما كان سبباً للانتصار في نظرهم، وهي حقاً مبادرةٌ أربكت أمريكا بجميع أجهزتها وهدّت من معنويات شعبها وأورثَتْهُم رعباً وهَلَعاً.

وألجأتهم لاستعجال الخطط العسكرية والرد قبل استكمال التخطيط والتجهيز وقبل التهيئة الشعبية والسياسية الكافية وقبل رصد التوقعات المحتملة وغير ذلك، هذه واحدة.

الثانية: أنّ ذاك الهجوم هو كَسْبٌ للمعركة قبل خوضها، بمعنى أنّ أمريكا غاية ما ستفعله هو القضاء على مَن كان في أفغانستان من طالبان والعرب، وذلك لا يُوازي بحالٍ

ما حصلَ لها من كوارثَ وهزائمَ سياسيةٍ واقتصاديةٍ وأمنيّةٍ جَرّاء هجوم الحادي عشر، مع أنّ القضاء على مَن كان في أفغانستان لن يقضي على عداوة أمريكا في نفوس المسلمين، ومنهم مَن يبيع نفسه لله من أجل حربها، بل كلما أوغلَت في تنفيذ حملتها العسكرية وما يتبعها من حملاتٍ مخابراتيةٍ وملاحقاتٍ ماليةٍ ضاعفَ ذلك من أعدائها وعِدائها وأَجَّج من عداوتها في النفوس.

علماً أنّ المجاهدين يَرَوْنَ أنّ تأجيج عداوة أمريكا في نفوس المسلمين والدعوة إلى جهادها وبُغضها والسعي إلى الإضرار بها يُعَدُّ مَرْبَحاً يستحقّ التضحية من أجله، لأنه سيكون سبباً ولو بعد حينٍ لجهاد أمريكا جهاداً شاملاً.

الثالثة: أنّ هجوم الحادي عشر نَجَحَ في جَرِّ أمريكا إلى الأرض المطلوبة للمعركة حيث يُحْسِنُها المجاهدون ويجهلها الأمريكيون، وكل الخيارات المطروحة لأرض المعركة لا يمكن أن تكون أنسب من أفغانستان.

ونجح الهجوم أيضاً في تحديد زمن المعركة، ونجح في إخراج أمريكا من الحرب المستترة والمتوارية، ودعم هذا وذاك إلى خوضها المعركة بنفسها وظهورها للناس مسلمِهِم وكافرِهِم، وهذا له آثاره من حيث إثارة عداوتها في نفوس المسلمين وكراهيتها وإذكاء روح الجهاد في قلوبهم مما قد لا يظهر في حروبها على المسلمين في أنواعٍ أخرى، وظهورها أيضاً أمام العالم كله بغطرستها وكبريائها وهي تلاحق مجموعةً من الناس في الجبال، ثم لا تستطيع الآن لو هُزِمَت –نسأل الله ذلك– أن تُخفي هزيمتها وهي التي تقود المعركة بنفسها.

وإنّا لنطمع أن ينطبقَ على أمريكا هذه الآيات البيّنات الشافيات من سورة براءة، والتي خُتِمَت بالوعد بالنصر عليهم، يقول الله جَلَّ ذكره: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (7) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (8) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (9) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (10) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا

أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (12) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (13) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (15) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (16)﴾ [التوبة: 7-16]،

1. ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ [التوبة: 7] فهؤلاء الكفار ولا سيما أمريكا ذات المكر الكُبّار كيف يمكن أن يكونَ لها عهدٌ وهي النَّاقضةُ النَّاكثةُ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23)﴾ [الأنفال: 22-23].
2. ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: 8]؛ وهكذا أمرُ أمريكا ومَن معها من الغرب الصليبيّ الحاقد؛ إن يَظْهَرُوا على المسلمين ويَنْتَصِروا عليهِم فَوَالله لن يَرْقُبُوا فيهِم إلّاً ولا ذمّةً، والإلّ قيل هو اسم لله تعالى، وقيل معناه العهد، وقيل معناه القرابة، ورَجَّح ابن جرير رحمه الله أنه شاملٌ لذلك كُلِّهِ. وكذلك أمريكا لا تؤمن بالله تعالى ولا تُراقِبُهُ ولا تراقبُ حُرُمَاتِهِ حتى على شريعتهم المحرّفة، ولا هي تراقب عهداً للمسلمين ولا أقربَ الأَقْرَبينَ إليها.

فأمريكا إن ظَهَرَت والله وانتصرَت لا قَدَّرَ الله، فوالله لن تراقب اتفاقاتها حتى مع الدول الصديقة، ولن تُراعي خدماتهم إيّاها، بل ولا اعتذاراتهم، فما بالَهم لا يَفقهونَ ذلك؟ وما لهم في نُصرتها يُسارِعونَ وعلى حتفهم يَتَعَجَّلون؟

3. ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (8)﴾ [التوبة: 8]؛ لقد تظاهرت أمريكا بأنها لا تحارب الإسلام، وتظاهرت بأنها تحترم الإسلام، وهكذا دول الغرب، لكنّ قلوبهم تأبَى ذلك أشد الإباء، وهم أرباب الفسق والفجور
4. ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (9)﴾ [التوبة: 9]؛ قال الطبري رحمه الله في تفسيره: "يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ابْتَاعَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ

الَّذِينَ أَمَرَكُمُ اللهُ، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، بِقَتْلِهِمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ، بِتَرْكِهِمُ اتِّبَاعَ مَا احْتَجَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ حُجَجِهِ، يَسِيرًا مِنَ الْعِوَضِ قَلِيلًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا".[5]

وهكذا أَعْرَضَت أمريكا عن منهج الله وتَلاَعَبَت حتى بالنصرانية مع تحريفها، فما كانت النصرانية -مهما حرّفوها- لِتُقِرَّ الإلحادَ والجرائمَ والشذوذَ؛ (في أمريكا فقط أكثر من عشرين مليون شاذ جنسياً، انظر: التِّبيان في كُفر مَن أعان الأمريكان للشيخ ناصر الفهد، فقد جمع أمثلةً كثيرةً من فساد أمريكا وإفسادها موثّقاً).

﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [التوبة: 9] فإنها لا تريد إسلاماً إلا أمريكياً يتماشى مع مصالحها، ومَن ظنّ أنّ الحرية في الدعوة إلى الإسلام في أمريكا تدلُّ على عدم صدّها عن سبيل الله فقد حَصَرَ الصدَّ في صورةٍ واحدةٍ، وإنما الصدّ الحقيقي حين تحارب بكل ما تستطيع بمَكْرها وحلفائها وسلاحها كل تمكينٍ إسلامي وما مثال البوسنة إلا من هذا الباب والأمثلة كثيرة.

5. ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (10)﴾ [التوبة: 10]، قال ابن جرير رحمه الله: "يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: لَا يَتَّقِي هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ أَمَرْتُكُمْ، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، بِقَتْلِهِمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ، فِي قَتْلِ مُؤْمِنٍ لَوْ قَدَرُوا عَلَيْهِ (إلاّ ولا ذمّة)، يَقُولُ: فَلَا تُبْقُوا عَلَيْهِمْ، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، كَمَا لَا يُبْقُونَ عَلَيْكُمْ لَوْ ظَهَرُوا عَلَيْكُمْ (وأولئك هم المعتدون)، يَقُولُ: الْمُتَجَاوِزُونَ فِيكُمْ إِلَى مَا لَيْسَ لَهُمْ بِالظُّلْمِ وَالِاعْتِدَاءِ".

وهكذا أمريكا كما تَقَدَّم في عدم مراعاتها العهود والمواثيق والاتفاقات والذمم، وهم دائماً في قائمة المتصدّرين للاعتداء (وأولئك هم المعتدون).

6. ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11)﴾ [التوبة: 11]، هكذا المؤمنون والمجاهدون يَفرحونَ بمن يُسْلِمُ من أيِّ دولةٍ أو وطنٍ أو عِرقٍ ويعتبرونه أخاً لهم، وكم جاهد في مواطن كثيرةٍ مسلمون أمريكيون، وحتى في هذه الحرب ولا زالوا ولله الحمد، فليست قضية المجاهدين انتقاميةٌ ولا انتقائيةٌ،

---

[5] (86/1).

وليسوا طُلّاب سلطةٍ أو حظوظ نفسٍ كما يزعمون؛ هل مَن يطلب الدنيا يُطلّقها ويشتري الموت؟

إنّ المجاهدين يجتهدون أن يكون عملُهُم لله خالصاً لرفعة الدين وإعزاز أهله، وليكون الدين كُلُّه لله، ولِتكونَ كلمة الله هي العليا، فلو تحقق لهم ذلك بغير جهادٍ لَرَضُوا، ويجب أن يَرْضُوا ويفرحوا، وإذا دخل كافرٌ في الإسلام أدخلوهُ في قلوبهم وفَدَوْهُ بأرواحهم.

7. ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (12)﴾ [التوبة: 12]، هنا أمرٌ من الله تعالى بمقاتلة الناكثين للعهد ومُناجَزَتِهم، وقد قدَّمنا كثيراً ما يُثْبِتُ نَكثَ أمريكا للعهود لو كان لها عهودٌ.

(وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ)؛ ما أَشَدّ ما يَطعنون في الإسلام، وأظهرَ الله ذلك على ألسنتهم فإنّ وسائل إعلامهم الآن تنضَحُ بالحقد والطعن الجَليّ على الإسلام وأهله.

(وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ)؛ وأيُّ إمامٍ للكفر أعظمَ من أمريكا؟

(فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ)؛ فَوَالله لا أَيْمَانَ لأمريكا، أي لا عهود.

(إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ)؛ فَوَالله لن ينتهوا إلا بالجهاد، وحينها يَكُفُّ الله بأسَهُم ويُضْعِفُ باطِلَهُم وفِكْرَهُم وتَخْوَى قُوَاهُم، عجَّل الله ذلك بمنّه وكرمه.

8. ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ [التوبة: 13] فالنكث من أمريكا ظاهر كما تقدم ثم هم قد بدأونا بالقتال في مواطن كثيرة ومن أقدمها فلسطين.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (13)﴾ [التوبة: 13]؛ فهذا استنكارٌ من الله تعالى على المؤمنين كيف يَخْشَوْن الكفار؟

فَلِمَ نخافُ أمريكا ونخشاها وقد كانت قريش في قوتها وعزّتها وإمامتها للعرب واتّبَاعِهِم إياها وغير ذلك بما يمكن تشبيهه الآن بأمريكا ومع ذلك يقول الله تعالى (أَتَخْشَوْنَهُمْ)؛ وهذا الإنكار يجري على الدول وعلى الشعوب الإسلامية كَيْلَا تخشى هذا الكافر.

قال تعالى: (فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ).

قال ابن جرير: "فَاللهُ أَوْلَى بِكُمْ أَنْ تَخَافُوا عُقُوبَتَهُ بِتَرْكِكُمْ جِهَادَهُمْ، وَتَحْذَرُوا سَخَطَهُ عَلَيْكُمْ، مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ".

9. ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14)﴾ [التوبة: 14].

قال ابن جرير: "(يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ) يَقُولُ: يَقْتُلْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ (وَيُخْزِهِمْ)، يَقُولُ: وَيُذِلُّهُمْ بِالْأَسْرِ وَالْقَهْرِ (وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ)، فَيُعْطِيكُمُ الظَّفَرَ عَلَيْهِمْ وَالْغَلَبَةَ (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ)، يَقُولُ: وَيُبْرِئُ دَاءَ صُدُورِ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، بِقَتْلِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِأَيْدِيكُمْ، وَإِذْلَالِكُمْ وَقَهْرِكُمْ إِيَّاهُمْ. وَذَلِكَ الدَّاءُ، هُوَ مَا كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَوْجِدَةِ بِمَا كَانُوا يَنَالُونَهُمْ بِهِ مِنَ الْأَذَى وَالْمَكْرُوهِ".[6]

وهكذا والله أمريكا؛ لَئِنْ قاتلناها مُخلصينَ آخذينَ بما أَمَرَنَا الله تعالى لَيُعَذِّبَنَّهَا بأيدينا، ويُخْزِهَا، ويَنْصُرْنَا عليها، ويَشفي صدورَ قومٍ مؤمنينَ قد ذاقوا من ظُلمها وتَسَلُّطها وكبريائها ما ذاقوه.

10. ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: 15]؛ إنّ جَمرة الغيظ في قلوب المؤمنين لا تنطفئ حتى تنطفئ جذوة الصَّلَف الأمريكي وتَخْمَدُ نارُهم.

11. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (16)﴾ [التوبة: 16].

قال الطبري: "يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَمَرَهُمْ بِقِتَالِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ نَقَضُوا عَهْدَهُمُ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بِقَوْلِهِ (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ)، الْآيَةَ، حَاضًّا عَلَى جِهَادِهِمْ: (أَمْ حَسِبْتُمْ)، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ يَتْرُكَكُمُ اللهُ بِغَيْرِ مِحْنَةٍ يَمْتَحِنُكُمْ بِهَا، وَبِغَيْرِ اخْتِبَارٍ يَخْتَبِرُكُمْ بِهِ، فَيَعْرِفَ الصَّادِقَ مِنْكُمْ فِي دِينِهِ مِنَ الْكَاذِبِ فِيهِ (وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ)، يَقُولُ: أَحَسِبْتُمْ أَنْ تَتْرُكُوا بِغَيْرِ اخْتِبَارٍ يَعْرِفُ بِهِ أَهْلَ وِلَايَتِهِ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ فِي سَبِيلِهِ، مِنَ الْمُضَيِّعِينَ أَمْرَ اللهِ فِي ذَلِكَ، الْمُفَرِّطِينَ، (وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ)، يَقُولُ: وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ، وَالَّذِينَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا مِنْ دُونِ رَسُولِهِ وَلَا مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ (وَلِيجَةً)؛ هُوَ الشَّيْءُ يَدْخُلُ فِي آخَرَ غَيْرِهِ، يُقَالُ مِنْهُ: وَلَجَ فُلَانٌ فِي كَذَا يَلِجُهُ، فَهُوَ وَلِيجَةٌ. وَإِنَّمَا عَنَى بِهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الْبِطَانَةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. نَهَى

[6] (90/10).

اللَّهُ الْمُـؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّخِـذُوا مِـنْ عَـدُوِّهِمْ مِـنَ الْمُشْـرِكِينَ أَوْلِيَـاءَ، يُفْشُـونَ إِلَـيْهِمْ أَسْـرَارَهُمْ (وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَـا تَعْمَلُـونَ)، يَقُـولُ: وَاللهُ ذُو خِبْـرَةٍ بِمَـا تَعْمَلُـونَ، مِـنَ اتِّخَـاذِكُمْ مِـنْ دُونِ اللهِ، وَدُونَ رَسُـولِهِ وَالْمُـؤْمِنِينَ بِـهِ أَوْلِيَـاءَ وَبِطَانَـةً، بَعْـدَ مَـا قَـدْ نَهَـاكُمْ عَنْـهُ، لَا يَخْفَـى ذَلِـكَ عَلَيْـهِ، وَلَا غَيْـرُهُ مِـنْ أَعْمَالِكُمْ، وَاللهُ مُجَازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرًا، وَإِنَّ شَرًّا فَشَرًّا"[7].

ثم روى بسنده عن ابن وهب قال: "أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلِيجَةً﴾، قَالَ: أَبَى أَنْ يَدَعَهُمْ دُونَ التَّمْحِيصِ. وَقَرَأَ: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ)، وَقَرَأَ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾، الْآيَاتِ كُلَّهَا. أَخْبَرَهُمْ أَنْ لَا يَتْرُكَهُمْ حَتَّى يُمَحِّصَهُمْ وَيَخْتَبِرَهُمْ. وَقَرَأَ: ﴿الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2)﴾ [العنكبوت: 1-2]، لَا يُخْتَبَرُونَ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3)﴾ [العنكبوت: 3]، أَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُمَحِّص".

[7] (10/ 92).

الْمُجَاهِدُونَ وَقِصَّةُ أَبِي بَصيرٍ

إنّ أقلَّ الأحوال تجاه ما حدث وتجاه ما يحدث الآن في أفغانستان أن نعتبر الثلّة المؤمنة المجاهدة في أفغانستان هي كحال أبي بصير ﷺ ومَن لَحِقَ به من المؤمنين، حيث بلغوا سبعين رجلاً كانوا بالعيص على ساحل البحر، يَتَرَصَّدون لعِير قريش ينفّذون عليها عملياتهم الجريئة.

فماذا كان موقف النَّبيّ ﷺ من أبي بصير ﷺ ومجموعته؟

وخُذ بالاعتبار قبل أن تعلم الجواب أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان قد أَبْرَمَ عهداً مع قريش بوضع الحرب بينه وبينهم، وكفى بعهد النَّبيِّ ﷺ عهداً وميثاقاً.

ثم إنّ قريشاً لم يظهر منها في وقت أبي بصير ﷺ نقضٌ للعهد أو الإخلال بشيءٍ منه بخلاف حالنا الآن، فإنّ عهودَنا مع الكفار تحتاج إلى كثيرٍ من النظر من حيث أصلها ومن حيث الالتزام بها من قِبَل الكفار أنفسهم.

ومع أنّ حال النَّبيِّ ﷺ مع الكفار كما وصفنا من قوة العهد بينه وبينهم ومن التزام الكفار حقيقةً بالعهد وعدم الإخلال به، إلا أنّ موقفه من أبي بصير ﷺ لم يكن محاربته أو إعانة الكفار عليه بل العكس من ذلك.

وإليكم القصة من البخاري: أخرج بسنده عن الزهري قال أخبرني عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية... فذكر قصة الحديبية والاتفاق بطولها، وفي آخرها: "ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِلَى الْمَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ -رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ- وَهْوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا. فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللهِ إِنِّي لأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلاَنُ جَيِّدًا. فَاسْتَلَّهُ الآخَرُ فَقَالَ: أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ. فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ، وَفَرَّ الآخَرُ، حَتَّى أَتَى

الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ رَآهُ: **لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا**. فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: قُتِلَ وَاللهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، قَدْ وَاللهِ أَوْفَى اللهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ ثُمَّ أَنْجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ. قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: **وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ!** فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ الْبَحْرِ، قَالَ: وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لاَ يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلاَّ لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّأْمِ إِلاَّ اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ بِاللهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ... الحديث".[8]

وفي السيرة لابن هشام بنحو قصة أبي بصير، وفيها: "وَبَلَغَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا أُحْتُبِسُوا بِمَكَّةَ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بِصَيْرِ: "**وَيْلُ أُمِّهِ مِحَشَّ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ!** فَخَرَجُوا إلَى أَبِي بِصَيْرٍ بِالْعِيصِ، فَاجْتَمَعَ إلَيْهِ مِنْهُمْ قَرِيبٌ مِنْ سَبْعِينَ رَجُلًا، وَكَانُوا قَدْ ضَيَّقُوا عَلَى قُرَيْشٍ، لَا يَظْفَرُونَ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ إلَّا قَتَلُوهُ، وَلَا تَمُرُّ بِهِمْ عِيرٌ إلَّا اقْتَطَعُوهَا..."[9] ومعنى **مِحَشّ** هي بمعنى مِسْعَر أي مُوقِد.

يتجلّى موقف النبي ﷺ من أبي بصير ومَن معه رضي الله عنهم فيما يلي:

1. لم يُنْكِر عليه قتله لِمَن جاؤوا لأخذه، بل ولا حتى بكلمة عتابٍ له.
2. لم يعتذر إلى قريش في ذلك، ولم يتفاوَض معهم حتى في تعويض للقتيل (الدِيَة).
3. لم يمسِك بأبي بصير ويحبسه عنده لظهور هذا العمل (الإرهابي) منه أو خوفاً من أن يشوّه صورة الإسلام أو ينسب إلى المسلمين نقضَ العهد مع احتمال هذا الأخير لملابسات الواقعة.

---

[8] (2731).
[9] (449/3).

4. لم يُسلّم أبا بصير بنفسه بأنّ بعثَه مخفوراً برجالٍ من الصحابة إلى قريش، بل هو أصلاً لم يرسله إلا لَمّا بعثت قريش بمن يأتي به، ثم لَمّا ظهر منه القتل لم يرسله أيضاً.

5. لقد أَلْمَحَ النَّبيُّ ﷺ إلى أنّ له دوراً يمكن أن يؤديه، وكأنها رسالة أيضاً إلى المستضعفين من المسلمين بمكة ممن أَسْلَمَ بعد صلح الحديبية حيث قال: **لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ!** ولهذا جاءت صريحةً في رواية ابن هشام، وأنّ تلك المقولة كانت سبباً لالتحاق أولئك المسلمين الجدد بأبي بصير ﷺ.

6. لقد ترك النبي ﷺ تلك العصابةَ المؤمنةَ بقيادة أبي بصير تؤدّي ما تراه من جهادٍ دون أن يعارضهم بشيء أو يستنكر عليهم أو يعتذر لقريش من فعلهم أو يُحذّر من اللحوق بهم أو يَصِمَهم بالتعجّل والافتيات عليه أو غير ذلك.

7. لم يُصدِر النَّبيُّ ﷺ أمراً بمنع مساعدة أبي بصير ﷺ ودَعْمِهِ والوقوف معه والدعاء له، ولم يُصدِر تحذيراً منه وممن يتعاطَف معه، بل تَرَكَهُ وما نَدَبَ نفسه له.

والسبب في تلك المواقف يرجع إلى أنّ النَّبيَّ ﷺ يَعتبر أنّ هؤلاء لم يدخلوا في سلطته باعتراف قريش وبنصّ الاتّفاق الذي وفّى به النَّبيُّ ﷺ، فليس له عليهم من سبيلٍ من حيث سلطة الدولة، وليسوا محسوبينَ عليه أيضاً، فلا يَتَحَمَّل ما يَصدُرُ منهم، ولم يكن بحاجةٍ إلى أن يُحَمِّلَ نفسه تَبِعَات ذلك.

ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يكن كذلك كارهاً لفعلهم، وليس هذا بنقضٍ للاتّفاق، فإنّ قريشاً تعلم أنه عدوٌ لهم، وهو يعلم أنهم عدوٌ له، وما كان الاتّفاق والعهد لِيَرْفَعَ العداوةَ أبداً ولا لِيَمْنَعَ أن يتمنّى كُلُّ طرفٍ هَلَكَةَ الآخر ويفرَحُ بما يصيبه.

وهذا الوضوح في العهود حتى كان عند العرب أنفسهم، بمعنى أن يفيَ كُلُّ طرفٍ بنصّ الاتّفاق، ولكنه لا يُكلَّف فوق ذلك مما لا يشمله الاتفاق.

ومن عجب أننا حتى في العهود لم نفقه حسن التعامل فيها حتى جعلنا مَن عاهدنا من الكفار –على فَرَض سلامة تلك العهود من كل وجهٍ– له من الحقوق أعظم من إخوتنا في

الدين، والتزمنا له بالحُبّ وألّا يَصدُرَ منا ولا كراهيةَ القلب، والتزمنا له بمحاربة أعدائه وإن كانوا لا يدخلون تحت سلطتنا ولا يتناوله الاتفاق أصلاً.

وإذا اتّضح موقف النَّبيّ ﷺ من أبي بصير فلمَ لا يسعنا ما وَسِعَهُ؟

لمَ نُكَلِّفُ أنفسنا ما لا يلزمنا لا شرعاً ولا عقلاً؟

لمَ نَتَحَامَلُ على أمثال أبي بصير رضي الله عنه؟

لمَ نَلْمِزُهُم ونعتبرهم مُتَعَجّلينَ وجُهّالاً؟

لمَ لا نفرح ونُسَرُّ ببقائهم؛ فقد يدفع الله بهم ما لا نعلمه من الشرّ؟

لمَ نسيء الظنَّ بربنا جَلَّ وعَلَا حتى يُخَيَّل إلينا أنّ معالِمَ الدين سَتَنْدَرِسُ بسبب ما يقوم به مجاهدونَ قد تَحَرَّوا الصواب فيما أَقْدَمُوا عليه؟

فهل نرضى أن نكون كبعض الأعراب الذين عاتبهم الله تعالى حين تَخَلَّفوا عن الغزو بقوله: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12)﴾ [الفتح: 11-12].

فعلى كُلِّ مسلمٍ، وعلى أهل العلم منهم خاصةً، بل وعلى دول المسلمين أن يتأمّلوا قصة أبي بصيرٍ، وأن يعلموا أنها أقلّ الأحوال في شأن المجاهدين.

هَذِهِ الحَرْبُ؛ هَلْ هِيَ مُجَرَّدُ انْتِقَامٍ؟

لقد ذكرنا فيما سَبَقَ تصريحَ وزير الخارجية الباكستاني والذي أَثْبَتَ فيه اطّلاعَهُ على خطةٍ مُسَبَّقةٍ لشنّ حربٍ على أفغانستان من قِبَل أمريكا قبل وقوع أحداث سبتمبر، وكذلك نشرت بعض الصحف الفرنسية وغيرها تفاصيل مثل تلك الخطة والتي كانت مُعَدَّةً قبل ثلاث سنوات.

لذا قد يُخطئ البعض ويظنُّ أنّ حربَ أمريكا على أفغانستان وملاحقتها للمجاهدين هو انتقامٌ لِمَا حدث لها من ضربات وليس حرباً على الإسلام والمسلمين، وبغض النظر عن الإجابة التي أَوْرَدْنَاهَا في بداية الكلام وذكرنا فيها الاستعداد المسبَّق لهذه الحرب من قِبَل أمريكا، فإننا سنجيب على هؤلاء بجوابٍ آخَرَ أيضاً.

وهنا لا بُدَّ من معرفة ثلاثة أمور هي، بعدَ التسليم جدلاً بأنّ ما حدث هو من فعل المجاهدين وأنّ أمريكا أثبتت ذلك بالدليل القطعي:

أولها: أنّ ما فعله المجاهدون بأمريكا في هجوم الحادي عشر على الافتراض السابق لم يفعلوه انتصاراً لأنفسهم وانتقاماً لها، وإنما هو انتصارٌ للدين وللمستضعفين من المسلمين الذين لم يَسْلَموا من تَسَلُّط أمريكا وظُلمها وقَتلها إياهم بنفسها أو بوكلائها، وسرقة ثرواتهم بشتّى أنواع السرقات الصريحة والمغلّفة.

وهو انتقامٌ بأيديهم من هذا العدو المتغَطرس الذي أسرفَ في طغيانه وجَبَروته، وإذاقتِهِ بعضَ ما يذوقُه المظلومون على يَدَيْهِ مما لا يُحصيه العَدُّ ولا يُحيطُ به الوصف، فهو من باب الدفع لا أكثر.

ثانيها: أننا نسأل: **هل الجهاد من الإسلام أو ليس من الإسلام؟** فإذا كان الجهاد من الإسلام بل هو ذروة سَنامه ولا يتمّ إسلام العبد إلا باعتقاد أنّ الجهاد من الدين، فسيأتي السؤال الآخر: **هل أمريكا إذا كانت لا تُحارب الإسلام فهل هي لا تُحارب الجهاد أيضاً؟**

بمعنى: هل يمكن لأمريكا أن ترضى بالجهاد أو ترضى بعمليةٍ واحدةٍ جهاديةٍ فضلاً عن قيام جهادٍ في أيِّ مكانٍ حتى لو لم يَمَسَّها منه أذًى كما في فلسطين والفلبين والشيشان وكوسوفا وغيرها؟

إنها والله لا ترضى ولا باسم الجهاد ولا بروح الجهاد ولا برائحة الجهاد من وراء حجاب.

وليس أَدَلَّ على ذلك من حربها الضروس على المجاهدين في فلسطين، ولم ترضَ بهم بحالٍ، وهي المقاومَةُ الوحيدة التي يعترف بدعمها العرب والمسلمون على استحياءٍ، بل إنها قد وقَّعت على وثيقةٍ دوليةٍ لتعريف الإرهاب قبل أكثر من خمسين سنة تستثني هذه الوثيقةُ مقاومَةَ المحتل من مُسمّى الإرهاب.

فإذا كانت أمريكا تحارب الجهاد، فأيُّ إسلامٍ هذا الذي لا تحاربه وهي تنال من ذروة سَنامه ليل نهار؟ نعم إنها لا تحارب الإسلام الأمريكي (الإسلام المودِرْنْ) الإسلام الذي تُفَصِّلُهُ كما تشاء.

وحسبُنا واللهِ كتابُ الله إذ يقول فيه جَلَّ شأنُه: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120]، وهذه المناقشة التي ذكرناها في هذا الوجه ينبغي التأمّل فيها سواءٌ اعتَبَرَ المخالف ما مضى من أعمال المجاهدين (أحداث الحادي عشر على فَرَض صحّة النسبة) أو اعتبرها جهاداً صحيحاً أو لم يعتبرها، فلسنا نعني محاربة أمريكا في شيءٍ مُعَيَّنٍ، وإنما محاربتها للجهاد عقيدةً ومبدأً، وما يتعلَّق به من الولاء والبراء وإظهار عداوتهم ونحو ذلك.

ثالثها: أنّ أمريكا إمّا أن يكون لها الحقُّ في معاقبة من تُلَقِّبَهُم بالإرهابيين في أفغانستان، وإمّا أن لا يكون لها ذلك.

فمَن اعتقد أنّ لها الحق فقد اعتقد ما لا يليقُ بعاقلٍ فضلاً عن مسلم؛ ذلك أنّ أمريكا لم تتخذ الخطوات لا نقول الشرعية لأنها لا تعترف بشرعنا المطهّر وذلك أشرَفُ لَهُ، ولكنها لم تتخذ الخطوات القانونية في «العُرف الدولي» فمثلاً –بإيجاز– ونكرر على فَرَض أنها أثبتت ادّعاءها بدليلٍ قطعي:

1. لم تَرفع القضية إلى محكمة العدل الدولية لإصدار حكمٍ قضائي.
2. لم تَقبل محاكمة أولئك على أراضي أفغانستان مع أنّ القانون الدولي يقتضي ذلك.
3. لم تَقبل محاكمتهم في دولةٍ إسلامية.
4. لم تَقبل محاكمتهم في دولةٍ محايدةٍ ولو غير إسلاميةٍ بمشاركة دولةٍ إسلاميةٍ.
5. بعد ذلك استُعملت القوة لاقتحام دولةٍ مستقلةٍ، وانتهاك سيادتها مع أنّ لها وسائل قبل ذلك، كالحصار وتَكرار المطالبة، وليست مطالبة صوريّة فقط قبل الغارات الجوية بيومين لا أكثر، ونظاماً كان ينبغي عليها ألا تتخذ أي خطوة عملية إلا من خلال قرار من مجلس الأمن والعمل تحت مظلته.
6. لم تقبل المفاوضات بعد ذلك.

كُلُّ هذه الخطوات لا تعني المسلمَ في كثيرٍ منها لأنها تَحَاكُمٌ إلى الطاغوت، ومع ذلك نوردها لإثبات ما هو أبعدُ من مجرد اعتقاد المسلم وحده، وأنّ فعل أمريكا لا يُقِرُّهُ حتى غير المسلمين ممن رُزِقَ عقلاً وتحرر من القيود على التفكير.

فإذاً كيف يخطر على بال مسلم أَحقيّة أمريكا بما تفعل؟ ولا والله بمقدار ذَرَّة.

وإذا لم يكن لأمريكا حقٌ؛ فما موقف المسلم من إخوانٍ له يحاربُهُم رأس الكفر بنفسه هذه المرة وليس عبر وكلائه؟

إنّ مجرد السكوت عنهم والكفِّ عن النَّيْل منهم وإن لم يَقُم به كثيرون، فليس والله مع ذلك بنُّصرةٍ، فإنّ النُّصرة واجبةٌ، فإن لم تتحقق بالنفس فلا أقلَّ من المال والكلمة والدعاء والتأييد، ونشر أخبارهم الصحيحة، ورفع الهمم والمعنويات، وتقوية الإيمان واليقين، وترسيخ الولاء للمؤمنين مهما كانوا والبراءَ من الكافرين مهما كانوا، واستغلال كلِّ وسيلةٍ لنُّصرة الدين والجهاد والمجاهدين ومنها الوسائل الحديثة كالاتّصالات والقنوات والحاسبات والإنترنت وغير ذلك.

إنّ مَن لم ينصر إخوانه المجاهدين لا عُذرَ له مهما خالفهم في الاجتهاد إن كان من أهل الاجتهاد، لأنه إن كان يعتقد صواب ما فعلوا، سواءً الهجوم على أمريكا –على فَرَض كونهم هُمُ الذين قاموا به– أو ما يقومون به بعد ذلك من أيِّ تصرفٍ أو اجتهادٍ فإنه قد حَكَمَ على نفسه حينئذٍ بالتقصير، إذ كيف يَقعُدُ عن نُصرة إخوانه مع موافقته لهم؟

وإن كان يرى خطأَ ما فعلوا؛ كُلَّه أو بعضَه، فإنّ خطأهم خطأ مجتهدٍ، وقد ثبت استناد المجاهدين إلى بحوثٍ علميةٍ واجتهاداتٍ فقهيةٍ مع مَن بحضرتهم من طلبة علمٍ تقوم بفتواهم الحجة.

وهل يجوز لِمَن كانت هذه حاله أن يُسلِّم إلى الكفار ويُخْذَلُ ويُقْعَدُ عن نُصرته؟

ولئن فرضنا أننا لا علم عندنا ولسنا أهلاً للاجتهاد في مثل تلك القضايا وقد أخطأنا في تصرفاتنا أَفَيَكُونُ اعتقاد ذلك عذراً في ترك المجاهدين تحت وطأة الكافر الغاشم؟

إنّ غاية خطأنا أن يكون كبيرةً من الكبائر، وما عَهِدْنا أصحاب الكبائر لا يُنْصَرونَ على أصحاب الشرك والكفر والتثليث وكُلِّ بَلِيَّةٍ وإلحادٍ ونقضٍ حتى لشرائعهم المحرّفة من إباحيةٍ مُتعفّنةٍ وإسفافٍ ما بعده إسفافٌ.

ثم إذا كان المجاهدون على شيءٍ من الجهل، فأين مَن يعتُبُ عليهم من أهل العلم من المشاركة معهم لتعليمهم وتفقيههم وتصحيح سلوكهم والوقوف على حقيقة ما يواجهون لتنزيل الأحكام الشرعية عليها؟

ولئن فرضنا على أسوأ احتمالٍ وأبعَدِ تقديرٍ افتراضاً لا يقبله مَن له أدنى سمعٍ وبصرٍ أنّ هؤلاء الكفار قد وَقَعَ عليهم ظلمٌ من المجاهدين –على فَرَض ثبوت ما نُسِبَ إليهم كما تَقَدَّم– وافترضنا أنّ هؤلاء الكفار لم يظلموا المسلمين قِيدَ شعرةٍ، فما الموقف الشرعي لنُصرة المظلوم الكافر؟

تجرّد أيها القارئ المسلم، ودَعْ عنك الخطاب غير الشرعي فإنه ليس بعلمٍ.

إليك الموقف الشرعي –فيما نحسَب– بعد تحقق الافتراضات السابقة حقيقةً:

1. إن كان هؤلاء المعتدون في دولةٍ مسلمةٍ بينها وبين أولئك الكفار عهدٌ، فإنّ على رئيس الدولة الكافرة المعتدى عليها أن يطلب من رئيس الدولة المسلمة محاكمةَ أولئك مقدِّماً أدلته على دَعواه.
2. لا يجوز محاكمة المتّهم في غير محكمةٍ شرعيةٍ بأيّ حالٍ من الأحوال.
3. إذا ثَبَتَ على المتهم ما نُسِبَ إليه، وَجَبَ على الدولة المسلمة أن تدفع تعويضاً عن كُلِّ نفسٍ أُزْهِقَت (وهي في المصطلح الإسلامي دِيَةٌ عن كُلِّ قتيلٍ) وتعويضاً عن الإتلاف الحاصل في الأموال والممتلكات.

وأمّا تسليم المتّهم إلى الكافر يصنَعُ به ما شاء، ويفتنه عن دينه، فهذا أمرٌ شنيعٌ لا تُجيزُهُ الأدلة الشرعية، وأجابَ ابن حزم والمانعون من ذلك على فعل النَّبيّ ﷺ بتسليم أبي جندل وأبي بصير رضي الله عنهما بأنه مخصوصٌ بالنبي ﷺ لأنه قد عَلِمَ بالوحي أنّ الله سيجعل لهم فرجاً ومخرجاً كما قال لهما، وقالوا إذا لم يكن خاصاً بالنَّبيّ ﷺ فإنه منسوخٌ بنزول سورة براءة، وأجابوا بأجوبةٍ أخرى لا نطيل بذكرها.

أمّا الحكم عليه بالقتل، فهو ليس من حكم الشريعة الإسلامية، حيث لا يُقْتَلُ مسلمٌ بكافرٍ وإليك بعض الأدلة:

1. حديث علي بن أبي طالب ﷺ عن النَّبيّ ﷺ: "**لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ**". أخرجه البخاري.[10]
2. قصة عمرو بن أُميّة لِمَن كان بينه وبينهم عهدٌ وقد قتلهم عمرو فَوَدَاهُمُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ولم يُسَلِّم عمراً أو يحكُم عليه بالقصاص.[11]
3. قصة خالد بن الوليد ﷺ، ففي البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا: أَسْلَمْنَا، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَأْنَا صَبَأْنَا، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ، وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لاَ أَقْتُلُ أَسِيرِي، وَلاَ يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أَسِيرَهُ، حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرْنَاهُ، فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ فَقَالَ: "**اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ**"، مَرَّتَيْنِ.[12]

فَلَم يَزِدْ على أن قال: "**اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ**"، وودَاهم، وذلك أنّ خالداً ﷺ اجتهدَ فيما رآه مع أنهم مسلمون، فكيف بغير المسلم؟

وهذا هو الحكم الشرعي الإسلامي، وعلى علماء المسلمين أن يُبَيِّنُوا لنا إن كنا أخطأنا في الحكم والاستدلال هنا.

---

[10] (111).

[11] وهذا في حادثة بِئْرِ مَعُونَةَ، ومما جاءَ فيها: وَأُسِرَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، فَلَمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ مِنْ مُضَرَ جَزَّ عَامِرٌ نَاصِيَتَهُ وَأَعْتَقَهُ عَنْ رَقَبَةٍ كَانَتْ عَلَى أُمِّهِ، وَرَجَعَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ، فَلَمَّا كَانَ بِالْقَرْقَرَةِ مِنْ صَدْرِ قَنَاةٍ نَزَلَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ، وَجَاءَ رَجُلَانِ مِنْ بَنِي كِلَابٍ فَنَزَلَا مَعَهُ، فَلَمَّا نَامَا، فَتَكَ بِهِمَا عمرو وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ قَدْ أَصَابَ ثَأْرًا مِنْ أَصْحَابِهِ، وَإِذَا مَعَهُمَا عَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ، فَلَمَّا قَدِمَ أَخْبَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَا فَعَلَ فَقَالَ: **لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلَيْنِ لَأَدِيَنَّهُمَا**. زاد المعاد (222/3)، وبنحوه في: ومجمع الزوائد (131/6)، وتفسير ابن كثير (8/ 58)، والرحيق المختوم (268/1).

[12] (4339).

هذا الحكم فيما إذا كان بين الدولة المسلمة المقصودة وبين الدولة الكافرة المعتَدَى عليها عهدٌ، فأمّا إذا كانت الدولة الكافرة قد نقضت العهد -والنواقض كثيرة ليس هذا موضع بسطها- أو لم يكن ثَمَّ عهدٌ أصلاً فما الحكم في هذه الحال؟

الحكم ظاهرٌ؛ حيث إنّ الكافرَ الأصلُ فيه أنه محاربٌ ما لم يكن له عهدٌ أو ذمّةٌ، فإذاً ما دام أَلَّا عهدٌ بين الدولتين المسلمة والكافرة فما على الدولة المسلمة من سبيلٍ أبداً، ولا يجوز لمسلمٍ أن يعتقد أنّ للدولة الكافرة في هذه الحال الحقُّ في تحميل الدولة المسلمة شيئاً مما فعله رعايا الدولة المسلمة أو حتى مَن يلجأ إليها.

بعد هذا التأصيل الموجَز: ما توصيف حال الإمارة الإسلامية مع أمريكا وماذا كان موقف الإمارة الإسلامية؟

إنّ الإمارة ليس بينها وبين أمريكا أيَّ عهدٍ أو ميثاقٍ، والإمارة لم تدخل أصلاً في أية معاهدة فلا هي عضوٌ في هيئة الأمم ولا في مجلس أَمْنِهِم.

ولم تعترف بها أمريكا وتتبادل معها السفراء أو الممثِّلين، ولم يكن بينهما لا عهدٌ ولا شبهةُ عهدٍ، فهل لأمريكا على فَرَض نزاهتها، وعلى فَرَض ثبوت ما ادّعته هل لها أَدْنَى، أَدْنَى سبيلٍ على الإمارة؟

ومع ذلك إليكم موقف الإمارة، وكأنها افترضت وجودَ عهدٍ بينها وبين أمريكا تَنَزُّلاً لقطع أية حجة:

1. طَلَبَتْ من أمريكا الأدلة، فرفضت الأخيرة ذلك، ويكفي هذا من إعفائها من أية التزاماتٍ ومسؤولية.
2. أَعْلَنَتْ قبولها محاكمة المتهمين على أراضيها من قِبَل قضاةٍ مسلمين، فرفضت أمريكا ذلك أيضاً.

3. طَلَبَتْ من منظمة المؤتمر الإسلامي التدخّل والتوسّط في الأمر ففضّلت «دول الإسلام» –والله المستعان– أن تنصر الظالم بدلاً من السعي للصلح والذي دعا إليه المظلوم وليس الظالِم.

ماذا تريدون إذاً من الإمارة الإسلامية؟

والله لقد تأمّلنا ونَظَرْنَا وقَلَّبنا.

هل ارتكبت الإمارة من خطأ؟ هل قَصَّرَتْ في شيءٍ؟ هل اسْتَعْجَلَتْ في أمرٍ؟

فوالله ما وجدنا من ذلك شيئاً بل وجدناهم قد اتَّخذوا كُلَّ السُبُل المشروعة والمتاحة لهم ولم يَتَعَنَّتُوا أو يُصيبُهُم غلوٌ أو تفريطٌ.. بل إنهم قد أخذوا بالأمر الشرعي: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159] ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38]؛ فَجَمَعُوا علماءَهم واستشاروهم ولم يَخرجوا من مشورة العلماء، فهل لعاذلٍ عليهم بعد ذلك من سبيل؟ والله ليس لأحدٍ عُذرٌ بعد هذا عن نُصرة إخوانه.

هل هذه المعركة بالنسبة لنا قضية خاسرة؟

قد يُسَلِّمُ البعض بكُلِّ ما تَقَدَّمَ ولكنه يقول: تلك قضيةٌ خاسرةٌ، فماذا عسى أن يفعل مجموعةٌ من المتفرّقين في الجبال والملاحَقين من الأمريكان ومن عملائهم في مقابل القوة الأمريكية وترسانتها الحربية؟

والجواب كما يلي:

1. ليس من خِيارٍ أمام المجاهدين غير الدفاع عن أنفسهم وإلا فإنهم سيكونون بين الإبادة والأَسْر، وهل يمكن لمسلمٍ أن يَأْمُرَهُم بالاستسلام لذلك؟

وليس صحيحاً أن يقف المجاهدون لانتظار العدو كي يصل إليهم ليدافعوا عن أنفسهم وهم يعلمون يقيناً أنه أحرص عليهم من حرصه على الحياة، وهم أَحْرَصُ الناس على حياة.

وخير وسيلةٍ للدفاع هي الهجوم، وعليهم أن يبذلوا ما بوسعهم لقطع الطريق على العدو بشتّى السبل والوسائل، وعلى المسلمين أن يُعينوهم على إنقاذ أنفسهم فضلاً عن محاربة هذا العدو اللدود.

وإذا كان الفقهاء قالوا: لو أنّ مسلماً أُسِرَ لدى الكفار لَوَجَبَ على جميع المسلمين فَكَاكُه ولو تركوه أَثِمُوا جميعاً، فكيف بمن يلاحقه الكفار في أرضه؟

2. إنّ إطلاق قاعدة القضية الخاسرة على كُلِّ عملٍ لم تظهر بوادر نجاحه عاجلاً يمكن أن ينهدم بها قضايا ومشاريع واجتهادات مما يقتنع به القائل بهذه القاعدة، فمنها:

أ- قضية فلسطين؛ فلا داعي للجهاد فيها وبذل الأنفس والأموال لأنها قضيةٌ خاسرةٌ وفق هذا المنظور، فإذا كانت القضية في أفغانستان خاسرةً، فمِن باب أَوْلَى أن تكون القضية في فلسطين خاسرةً، لأنّ المجاهدين في فلسطين أَقَلُّ من المجاهدين في أفغانستان من حيث المقوّمات الجغرافية والقوة والعدد والعُدّة.

ب- بعض قضايا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي أحياناً قد يُقال فيها أنه لا فائدة من الأمر أو النهي في هذه القضية أو تلك، ولكنّ الله أجاب عن ذلك بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164)﴾ [الأعراف: 164]، أَفَيَبْخَلُ المسلمون على المجاهدين بما عساه أن يكون معذرةً لهم عند الله ولعلهم يُنْصَرون؟ وهل يَبْخَلُ المجاهدون أيضاً على أنفسهم بعملٍ يكون لهم معذرةً ولعلهم يُنْصَرون؟

ج- بعض قضايا الدعوة أيضاً فقد لا تظهر النتيجة في بادئ الأمر، فهل يتراجع الداعية ويُقْطَعُ الدعم لأنّ المؤشّرات تقول لا نتيجة؟

3. لا خلاف بين الناس فضلاً عن أهل العلم أنّ المريض الميؤوسَ منه لا يجوز تركه يموت مع إمكان بذل شيءٍ له، وما زلنا نرى الملايين تُنْفَقُ في معالجة مرضى السرطان مع أنّ نسبة الشفاء منه قد لا تتجاوز 10% وما رأينا أحداً أنكرَ ذلك؛ فَهَلّا اعتبرنا المجاهدين من مرضى السرطان، فبذلنا لهم بعضَ ما نبذل لأولئك بدلاً من اعتبار القضية خاسرة؟

4. ذَكَرَ الفقهاء وجوبَ فكاك الأسير وبذل الأموال الطائلة في سبيل مسلمٍ واحد؛ فكيف بمن هم أعظم من ذلك؟

5. هذه القضية ليست خاسرةً بالمنظور الإسلامي، فقد أخذ المجاهدون استعدادهم المتاح وبذلوا ما يرونه واجباً عليهم ولم يُقصّروا إن شاء الله في شيء من ذلك، وهذا جُهدُهُم، وبهذا لم يدخلوا في قضيةٍ خاسرةٍ، وإلا فما عسى أن تقارن قوةَ واستعداد النَّبيّ ﷺ ومَن معه من المسلمين يوم بدر باستعداد قريش؟

وماذا يمكن أن يُقال في غزوة مؤتة: ثلاثة آلاف في مقابل مائتي ألف بأحدث الأسلحة والمؤن والتجهيز؟

لم يتراجع المسلمون في مؤتة ويقولوا إنها قضية خاسرة، ولم يعاتِبْهُمُ النَّبيُّ ﷺ على دخولهم في قضيةٍ خاسرةٍ، بل لَمّا أراد المسلمون انتظار المدد شَجَّعَهُم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه على المضي، وما بلغنا أنّ النَّبيَّ ﷺ خطَّأ ما صنعَ ابن رواحة ولا تلميحاً، ولو كان فيه من خطأ لَمَا ترك البيان لهم رسول الله ﷺ وهو الحريص على البيان لأُمّته ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128)﴾ [التوبة: 128] بآبائنا هو وأمهاتنا.

وماذا عن خروج سَلَمَةَ بن الأَكْوَع رضي الله عنه وحدَه خلف الغُزاة من فَزَارَة الذين أغاروا على سرح النَّبيّ ﷺ وهي المسماة غزوة ذي قرد التي أخرجها مسلم مطوّلةً والبخاري مختصرةً[13]؛ أفكان مُضِيًّاً في قضيةٍ خاسرةٍ؟

---

[13] عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ سَلَمَةَ بْنَ الْأَكْوَعِ يَقُولُ: خَرَجْتُ قَبْلَ أَنْ يُؤَذَّنَ بِالْأُولَى وَكَانَتْ لِقَاحُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَرْعَى بِذِي قَرَدَ، قَالَ: فَلَقِيَنِي غُلَامٌ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، فَقَالَ: أُخِذَتْ لِقَاحُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: مَنْ أَخَذَهَا؟ قَالَ: غَطَفَانُ، قَالَ: فَصَرَخْتُ ثَلَاثَ صَرَخَاتٍ: يَا صَبَاحَاهْ،

وماذا عن الذين كانوا بماء الرجيع ﷺ بقيادة عَاصم بن ثابت حيث لم يستسلموا للعدو وكانوا عشرةَ نفر، ولأهمية القصة وفوائدها إليكموها من البخاري: عن أبي هريرة ﷺ قال: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً عَيْنًا، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ، وَهُوَ جَدُّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانَ بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لِحْيَانَ، فَتَبِعُوهُمْ بِقَرِيبٍ مِنْ مِائَةِ رَامٍ فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ، حَتَّى أَتَوْا مَنْزِلًا نَزَلُوهُ فَوَجَدُوا فِيهِ نَوَى تَمْرٍ تَزَوَّدُوهُ مِنْ الْمَدِينَةِ، فَقَالُوا: هَذَا تَمْرُ يَثْرِبَ، فَتَبِعُوا آثَارَهُمْ حَتَّى لَحِقُوهُمْ، فَلَمَّا انْتَهَى عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ، لَجَئُوا إِلَى فَدْفَدٍ، وَجَاءَ الْقَوْمُ فَأَحَاطُوا بِهِمْ، فَقَالُوا: لَكُمْ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ إِنْ نَزَلْتُمْ إِلَيْنَا أَنْ لَا نَقْتُلَ مِنْكُمْ رَجُلًا، فَقَالَ عَاصِمٌ: أَمَّا أَنَا فَلَا أَنْزِلُ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ، اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ، فَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى قَتَلُوا عَاصِمًا فِي سَبْعَةِ نَفَرٍ بِالنَّبْلِ، وَبَقِيَ خُبَيْبٌ وَزَيْدٌ وَرَجُلٌ آخَرُ، فَأَعْطَوْهُمْ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ، فَلَمَّا أَعْطَوْهُمْ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ نَزَلُوا إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ حَلُّوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ فَرَبَطُوهُمْ بِهَا، فَقَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ الَّذِي مَعَهُمَا: هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ فَأَبَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَجَرَّرُوهُ وَعَالَجُوهُ عَلَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَلَمْ يَفْعَلْ فَقَتَلُوهُ، وَانْطَلَقُوا بِخُبَيْبٍ وَزَيْدٍ حَتَّى بَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ... الحديث.[14]

ففي هذه القصة لجوء هؤلاء العشرة وهم عشرة فقط إلى الجبال ليتحصّنوا بها ولم يقبلوا الاستسلام، ولذا بَوَّبَ عليه البخاري في موضع آخر: هَلْ يَسْتَأْسِرُ الرَّجُلُ وَمَنْ لَمْ يَسْتَأْسِرْ.

وفي القصة جواز المقَاتَلَة وجواز الاستسلام، وكلاهما فَعَلَهُ بعض الصحابة هنا، وإن كان القائد عاصِمُ وأكثر مَن معه لم يقبلوا الاستسلام، ومَن قَبِلَ الاستسلام فقد قُتِلَ بعد الأَسْرِ ونالَهُ شيءٌ من الإيذاء، ولذا فإننا نختار ألا نستسلم للعدوِّ بأيِّ حال من الأحوال، وهذا

قَالَ: فَأَسْمَعْتُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ انْدَفَعْتُ عَلَى وَجْهِي حَتَّى أَدْرَكْتُهُمْ وَقَدْ أَخَذُوا يَسْتَقُونَ مِنْ الْمَاءِ، فَجَعَلْتُ أَرْمِيهِمْ بِنَبْلِي وَكُنْتُ رَامِيًا، وَأَقُولُ: أَنَا ابْنُ الْأَكْوَعْ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعْ، وَأَرْتَجِزُ، حَتَّى اسْتَنْقَذْتُ اللِّقَاحَ مِنْهُمْ، وَاسْتَلَبْتُ مِنْهُمْ ثَلَاثِينَ بُرْدَةً، قَالَ: وَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَالنَّاسُ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، قَدْ حَمَيْتُ الْقَوْمَ الْمَاءَ وَهُمْ عِطَاشٌ، فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ السَّاعَةَ، فَقَالَ: **يَا ابْنَ الْأَكْوَعِ مَلَكْتَ فَأَسْجِحْ**، قَالَ: ثُمَّ رَجَعْنَا وَيُرْدِفُنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى نَاقَتِهِ حَتَّى دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ. البخاري (3958) واللفظ له، ومسلم (1806).

[14] (3858).

أخـذٌ بالعزيمـة، وإنمـا الاستسـلام رخصـةٌ كمـا ذكـر ذلـك ابـن حجـر رحمـه الله في الفـتح[15]، ونقل عن سفيان الثوري كَرَاهَةَ الاستسلام.

قُلتُ: ولا يَبعُد حُرْمَتُهُ للقادة وأهل الشأن خاصة.

ولأنّ استسـلام المجاهـد مـع مـا فيـه مـن الانهـزام وشـيءٍ مـن الـذل ومـا فيـه مـن كسـر قلـوب المسـلمين، وثُلمـةٍ في موقـف المجاهـدين، ومـا فيـه مـن سـرور العـدو وغِبطتـه وشماتتـه بالمجاهـدين والمسلمين عامّةً ورفع معنوياته.

مـع مـا في الاستسـلام مـن جميـع تلـك المفاسـد؛ إلا أنـه أيضـاً لا يحقـق للمستسـلم مـا خـاف علـى نفسـه منـه وهـو المـوت، فإنـه سيصـبر إلى قِتلـة أَشْـنَعَ وأَذَلَّ ممـا سـيُقْتَلُ عليهـا لـو لم يستسـلم، هـذا إن لم يمـرّ قبـل ذلـك علـى التعـذيب والتنكيـل وانتـزاع المعلومـات الـتي قـد تضـرُّ غيره.

نعود إلى الشاهد من هذه القصة؛ وهو أنّ هؤلاء الصحابة العشرة ﭫ لم يعتبروا قضيتهم خاسرةً فيستكينوا.

ولـو علـم بهـم النـبي ﷺ وكـان يمكنـه مسـاعدتهم بمـا يسـتطيع مـا تـردد في ذلـك، وحاشـاه حـتى وإن أدرك أنهم لن ينجُوا مما هم فيه.

ولو استقرأنا السُنّة والسيرة والتاريخ لوقفنا على أمثلةٍ كثيرةٍ من هذا القبيل.

ولم يُنقَل أنّ النَّبيَّ ﷺ توقّف في إمداد سَرِيَّةٍ أو إنقاذ معصومٍ تَذَرُّعاً بالإياس من إنقاذه.

[15] (374/7).

6. أخيراً: مَن الذي أوقفنا على حقيقة الأمر وجَلَّى لنا الغيب لنحكم بأنها قضيةٌ خاسرةٌ ومن الحكمة عدم إضاعة الوقت والمال والأنفس بالرهان عليها وهي خاسرةٌ؟
7. على مَن اعتَبَرَ أنّ القضيةَ خاسرةٌ ألا يخذِّل غيره وأن يكتفيَ بكَفّ يدِهِ ورفعها، وتَرك مَن يرى غير ذلك أن يُقدِّمَ معذرتَه إلى ربه ويُبَرّئ ذمّته، وليس عليه منهم من سبيلٍ وما هو عليهم بحفيظ.

والقضية بإذن الله ليست خاسرة، لأنها بين النصر أو الشهادة.. وتلك الأمور لا يمكن أبداً أن يَعُدّها المسلم خسارةً بأيّ حالٍ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: 52]، فسماهما الله حُسْنَيَيْن وبَيَّنَ تلك الحُسْنَيَيْن بقوله﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (171)﴾ [آل عمران: 169-171]، فَنَيْلُ الشهادة لذاتها، والبحث عنها في كل موطنٍ، يُعَدُّ غايةً ومقصوداً للمسلم، وهذا الأمر يدُلُّ عليه أكثر من ثلاثين دليلاً من الكتاب والسُنّة، سوى أقوال أهل العلم في ذلك، ولا مجال للإطالة في ذكرها، ولعلنا نقف معها في مواطن أخرى. والحُسنى الثانية التي بيّنَها الله في كتابه هي: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (13)﴾ [الصف: 13].

والذي أنزل الفرقانَ ونَصَرَ الإسلام بيوم الفرقان لَنَرْجُو أن نكون تحت راية أمير المؤمنين ممن تنطبق عليهم هذه الآيات من سورة الحج، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ

صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40)﴾ [الحج: 38-40].

وأمّا الوقوف مع هذه الآيات ففي الفصل القادم إن شاء الله، التي بعنوان: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: 38].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾

هـذا الفصـل عبـارةٌ عـن وقفـات مـع قـول الله تعـالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُـدَافِعُ عَـنِ الَّـذِينَ آمَنُـوا﴾ [الحـج: 38]، ووقفـات أخـرى مـع قـول الله تعـالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَـرُوكُمْ فِي الـدِّينِ فَعَلَـيْكُمُ النَّصْرُ﴾ [الأنفال: 72].

قـال تعـالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُـدَافِعُ عَـنِ الَّـذِينَ آمَنُـوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِـبُّ كُـلَّ خَـوَّانٍ كَفُـورٍ (38) أُذِنَ لِلَّـذِينَ يُقَـاتَلُونَ بِأَنَّهُـمْ ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَـى نَصْـرِهِمْ لَقَـدِيرٌ (39) الَّـذِينَ أُخْرِجُـوا مِـنْ دِيَارِهِـمْ بِغَـيْرِ حَـقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُـوا رَبُّنَـا اللَّهُ وَلَـوْلَا دَفْـعُ اللَّهِ النَّـاسَ بَعْضَـهُمْ بِـبَعْضٍ لَهُـدِّمَتْ صَـوَامِعُ وَبِيَـعٌ وَصَـلَوَاتٌ وَمَسَـاجِدُ يُـذْكَرُ فِيهَـا اسْـمُ اللَّهِ كَثِـيرًا وَلَيَنْصُـرَنَّ اللَّهُ مَـنْ يَنْصُـرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَـوِيٌّ عَزِيـزٌ (40)﴾ [الحج: 38-40].

1. والمجاهـدون بقيـادة أمـير المؤمنين إن شـاء الله تعـالى مـن الـذين آمنـوا وقـد وعـد الله تعـالى بالمدافعة عنهم وتأمّل قوله: (يُدَافِعُ)، ولم يقل: يَدْفَع، فإنّ الأولى أبلغ.
2. وعـدوتُنا أمريكـا يتّفـق المسـلمون جميعـاً بأنهـا صـاحبة هـاتين الصـفتين: (خَـوَّانٍ كَفُـورٍ)، فما أعظم خيانتهم لله تعالى وما أكثر ما خانوا المسلمين.
3. ونحـن مظلومـون في كـل حـال، مظلومـون مـن أمريكـا بملاحقتنـا والتضـييق علينـا وحصـارنا قبـل هـذه الحـرب الصـليبيّة، ومظلومـون أيضـاً لأننـا مـن المسـلمين، والمسـلمون كُلُّهُـم واقعـون تحـت ظلـم أمريكـا مـن وجـوهٍ كثـيرةٍ، ومظلومـون الآن بتسـلُّط أمريكـا علينـا وقصـفها لنـا قصـفاً لا يوصـف، فـالله تعـالى يقـول: ﴿أُذِنَ لِلَّـذِينَ يُقَـاتَلُونَ بِأَنَّهُـمْ ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39)﴾ [الحج: 39].
4. ﴿الَّـذِينَ أُخْرِجُـوا مِـنْ دِيَارِهِـمْ بِغَـيْرِ حَـقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُـوا رَبُّنَـا اللَّهُ﴾ [الحـج: 40]، فالمجاهـدون قـد أُخْرِجُـوا مـن ديارهـم بغـير ذنـبٍ اقترفـوه إلا أنهـم قـالوا رَبُّنـا الله: ﴿وَمَـا نَقَمُـوا مِـنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُـوا بِاللَّهِ الْعَزِيـزِ الْحَمِيـدِ (8)﴾ [الـبروج: 8]، وكـذلك الحـال مـع طالبـان فقد أُخْرِجُوا من ديارهم الآنَ بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا الله.

5. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: 40]، ففي هذه الآية بيانُ منزلة الجهاد، وأنّ الله يَدْفَعُ به عن المسلمين تَسَلُّطَ الكفار وإذلالهُمُ المسلمينَ وإهانتهم لشعائرهم، ودور عبادتهم، قال ابن زيد في معناها: لَوْلَا الْقِتَالُ وَالْجِهَادُ، وقال ابن جُرَيْج: دَفْعُ الْمُشْرِكِينَ بِالْمُسْلِمِينَ.[16]

ويتَّضِح هذا المعنى جلياً بقول الله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (84)﴾ [النساء: 84]، فإذاً لا بُدَّ من مدافعة الكفار وصَدِّ عدوانهم، وهذا ما يجتهد فيه المجاهدون، نسأل الله لنا النصر.

والمدافعة للكفار لا بُدَّ منها لحفظ التوازن ولو بنسبةٍ ما، وحين تُفقد هذه المدافعة فإنّ المدَّ الكُفريَّ المتلبّس بلَبوس العَوْلَمَة أو لَبوس المصالح أو غيرها من الأقنعة والأَلبسة سيمتدُّ دون مدافعةٍ، وحينئذٍ فلن يكون لبرامج الدعوة والتعليم وغيرها من المشاريع الإسلامية خطوطَ مدافعة وسيصل إليها العدو مباشرة.

ومن هنا يجب أن يتفهّم هذه المدافعة طَلَبَة العلم ورجال الدعوة وغيرهم من الإسلاميين، وأن يُدركوا أنّ المجاهدين يُشكّلون لهم خَطَّ الدفاع الأول وإن اختلفوا معهم في بعض الجزئيات، والواقع الآن خير شاهدٍ على ذلك؛ فالبلاد التي لا يشعر العدو الصليبيُّ أنّ فيها مدافعةً من قِبَل الإسلاميين، يتحوَّل من ملاحقة أصحاب المدافعة إلى ملاحقة رجال الدعوة أو الإغاثة، فالعدو قد قَسَّمَ المسلمين إلى عدة خطوط وبدأ بالأهم ثمّ المهم، فإذا فَرِغَ من الخطّ الأول -وهم أصحاب الجهاد- فإنه سيتجّه إلى الخطّ الثاني، وهكذا حتى يأتي على الإسلام كُلِّهِ لِيَفْرِضَ الإسلام الذي يريده هو، وهذا لا بُدَّ أن يَفهَمَهُ أصحاب التريُّث الذينَ يظنون أنّ تَرَيُّثَهُم واعتدالَهُم وإرضاءَ الصليبيّين عنهم يمكن أن يؤمِّنَهُم من

[16] انظر ابن جرير (174/17).

أعداء الله الذين، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120]، وقال: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105)﴾ [البقرة: 105].

6. ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40)﴾ [الحج: 40]، قال ابن جرير: "وَلَيُعِينَنَّ اللَّهُ مَنْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِهِ، لِتَكُونَ كَلِمَتُهُ الْعُلْيَا عَلَى عَدُوِّهِ؛ فَنَصْرُ اللَّهِ عَبْدَهُ: مَعُونَتُهُ إِيَّاهُ، وَنَصْرُ الْعَبْدِ رَبَّهُ: جِهَادُهُ فِي سَبِيلِهِ، لِتَكُونَ كَلِمَتُهُ الْعُلْيَا".[17]

ففي هذا وعدٌ من الله تعالى وبشارة وأن المجاهدين إن شاء الله من عرب ومن صفوة الأفغان نحسبهم ممن ينصرون الله بالجهاد فهم بإذن الله منصورون.

7. ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41)﴾ [الحج: 41] إننا لنرجو أن تكون الإمارة الإسلامية قد حققت ذلك حين مَكَّنَهَا الله، وقد تواتر الشهود من موافقٍ ومن مخالفٍ منصفٍ أنه لم يَمُرَّ على أفغانستان من حيث الأمن وتطبيق الشريعة مثل أيام الإمارة الإسلامية.

وإنجازاتهم خلال حُكمهم؛ قد كُتِبَ فيها أكثر من مقال وثَمَّ كتاب لنا وافٍ في هذا الشأن قد أصدَرَهُ مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، وهو كتاب (**الميزان لحركة طالبان**)[18].

ولكن ما نَصَّت عليه الآية قد ظَهَرَ للعيان جداً في حكم الإمارة الإسلامية، فهم يُقيمونَ الصلاة ويُحاسبون مَن لم يَقُم بها، ويُغلقون المتاجر بعد الأذان، وهم يأخذونَ الزكاة ويؤدّونها في وجهها، وأمّا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أنشؤوا له وزارةً خاصةً، وهذا ما لم يكُن في أية دولةٍ إسلاميةٍ، وقبلَ ذلك كله فقد حققوا توحيدَ الإلهية وفَرَضُوهُ.

[17] (178/17).
[18] الميزان لحركة طالبان

وأمّا الآيات الأخرى من سورة الحج والتي نرجو الله أيضاً أن تنطبق على حالنا فهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62)﴾ [الحج: 58-62].

8. ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فنرجوا أن نكون ممن هاجر في سبيله جل وعلا ابتغاء مرضاته ولإعلاء كلمته وإعزاز دينه.

قال ابن جرير رحمه الله في معنى الآية: "وَالَّذِينَ فَارَقُوا أَوْطَانَهُمْ وَعَشَائِرَهُمْ فَتَرَكُوا ذَلِكَ فِي رِضَا اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَجِهَادِ أَعْدَائِهِ".[19]

فهؤلاء قد وَعَدَهُمُ الله الرزق الحسن يوم القيامة والمدخل المرضي سواءٌ منهم مَن قُتِلَ أو ماتَ، وذلك بعد تفضيل بعض الصحابة للمقتول، فأنزل الله تعالى الآية باستوائهم رحمةً منه وفضلاً جَلَّ وعَلَا، كما قال سبحانه ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (157)﴾ [آل عمران: 157].

9. ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: 60]؛ إنّ المجاهدين إن كان ما نُسِبَ إليهم من الهجوم على أمريكا صحيحاً فهم قد عاقبوا بمثل ما عُوقِبوا به، فقد عُوقِبوا من جهة أمريكا بعقوباتٍ شتّى هي ظلم أمريكا الذي سبقت الإشارة إليه، وهو مما لا يَسَعُهُ مقالٌ ولا مقالاتٌ.

[19] (194/7).

ولَمّا عاقبوا بعقابهم ذلك بُغي عليهم وهو البغيُ والعدوان الذي تقودُهُ أمريكا الآن، فَوَالله لقد بَلَغَ البغيُ والعدوان مبلغاً عظيماً، وإذ قد تحقق في المجاهدين تلك الأوصاف فقد أَقْسَمَ الله تعالى لَيَنْصُرَنَّ مَن تحقق فيه ذلك؛ فاللام في قوله: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ﴾ لام القسم المؤكّدة بنون التوكيد.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ قال ابن جرير: "إِنَّ اللَّهَ لَذُو عَفْوٍ وَصَفْحٍ لِمَنِ انْتَصَرَ مِمَّنْ ظَلَمَهُ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمَهُ الظَّالِمُ بِحَقٍّ، غَفُورٌ لِمَا فَعَلَ بِبَادِئِهِ بِالظُّلْمِ مِثْلَ الَّذِي فَعَلَ بِهِ غَيْرُ مُعَاقِبِهِ عَلَيْهِ".[20]

10. ثم أَكَّد الله تعالى هذا النصر بقدرته جَلَّ وعَلَا على كل شيء؛ فمِن ذلك ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾، ولأنه تعالى ﴿ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ لا يَخْفَى عليه شيءٌ من مَكر الكفار وعملائهم.

ولأنه جَلَّ وعَلَا ﴿هو الحقُّ﴾ فهو ناصرٌ للحق، وأمّا ما سواه فباطلٌ، والله جَلَّ وعلا، يقول في الآية الأخرى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: 18].

ولأنه جَلَّ وعَلَا ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ فله العُلُوُّ المطلق؛ عَلوَّ الذات وعلوَّ الصفات وعلوَّ القَدْر وعلوَّ القَهر والكبرياء والعَظَمَة، وهو الكبيرُ الذي كل شيءٍ دونُه ولا شيءَ أعظمَ منه.

فكيف بالمؤمن حين يعتقد أنّ ربَّه جَلَّ وعَلَا له القدرة المطلقة، ومنها التصرف في الكون، وتصريف الليل والنهار، وأنه محيطٌ بخلقه، ولا يخفى عليه منهم شيءٍ، يسمعُهُم ويُبْصُرِهُم وأنه هو الحقُّ وحدَه، وما سواه فباطلٌ، وأنه أعلى من كُلِّ شيءٍ وأكبرُ من كُلِّ شيءٍ.. كيف بمن يعتقد ذلك؛ أَتُرَاهُ يخاف من أمريكا ويعتقد أنها لا تُغْلَبُ وأنها تُلَاحِقُ مَن تريد وأنها تَرْصُدُ حركات مَن يُعاديها؟

---

[20] (195/7).

وإذا كان المجاهدون قد حققوا المعتقد الصحيح والذي لا يتمّ إلا بهذا المعتقد الذي خُتِمَت به الآيات السابقات فقد استكملوا بإذن الله أسباب النصر.

﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: 72].

فهؤلاء قومٌ تَخَاذَلوا عن الهجرة الواجبة وقصروا في أدائها، ومع ذلك أَوْجَبَ الله نُصْرَتَهُم إذا استَنْصَروا بإخوانهم، فَهَبْ يا أخي أنّ إخوانك قد ارتكبوا مثل ما ارتكب هؤلاء من القعود عن الهجرة وهو فيما نعلم كبيرةٌ من الكبائر إذا تحققت الشروط وانتفت الموانع، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97)﴾ [النساء: 97]، أَفَلَيْسَت نُصرتُهم واجبةٌ بنصّ الآية رغم ما ارتكبوا من جُرمٍ؟

ولئن قال قائل: فإنّ الله تعالى قال بعدها: ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [الأنفال: 72]، فنحن بيننا وبين مَن يقاتل المجاهدين ميثاقاً؟

فيُقال له: أتعتقد حقاً أنّ لأولئك ميثاقاً وعهداً؟

فلقد بَيَّنَّا فيما سبقَ ما في هذا القول من التَجَوُّز ومُبايَنَة الحقيقة والواقع، فأصل تلك العهود يحتاج إلى كثيرٍ من النظر، وهل عُرِضَت على علماء المسلمين لِيُجَوِّزُوهَا.. وهل؟ وهل؟... إلى آخر التساؤلات التي يجب أن تُحرر قبل ذلك.

ثم مَن قال بأنّ تلك العهود قد التزم بها العدو؟ فأمريكا تَنْقُضُها ليلاً ونهاراً وسراً وجَهَاراً.

وإذا كان الحديث على مستوى الدول، فيكفي الدول الإسلامية حُجّةً على أمريكا أن تعاملها بالمثل، فكما أنها تُعين اليهودَ في وضح النهار، وتتبجّح بذلك بكُلِّ أنواع الإعانة

والـدعم مـن أسـلحةٍ بكـل أنواعهـا ودعـمٍ بالمعلومـات والحـرب والاقتصـادية ودعـمٍ في المحافـل الدوليـة وفي مجلـس الأمـن، فكـم اسـتعملت أمريكـا حـق الـنقض (الفيتـو) لمصـلحة اليهـود وغـير ذلك مما لا يسعه هذا المقال؟

كمـا أنها تفعـل ذلـك ومـا زالـت كـذلك، فمـن حـقّ الـدول الإسـلامية أن تفعـل مثـل ذلـك مع طالبان، فدعم طالبان كدعم أمريكا لإسرائيل على أسوأ التنازلات.

هـذا كُلُّـهُ في جانـب الـدول، وأمّـا الشـعوب فلـيس عليهـا أدنى بأسٍ بـدعم مَـن يحـارب مَـن لـه عهـدٌ، علـى فـرض كونـه عهـداً صـحيحاً لم يُـنْقَض، لأنّ ذلـك لـيس دعمـاً رسمياً فكمـا قـدَّمْنَا في قصـة أبي بصـير ﷺ لم يُنْقَـل أنّ النَّـبيَّ ﷺ مَنَـعَ المسـلمين مـن إعانتـه ومَـن معـه، وحَـذَّرَهم مـن دعمهم.

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [مُحَمَّد: 7].

بعـد هـذا العـرض المـوجَز لِمَـا قـد يَـرِدُ في بعـض خـواطر المسـلمين أو ربمـا بعـض أهـل العلـم والإجابة عنها بما تَيَسَّر، **يأتي السؤال: هل الساكت معذورٌ؟**

إنـه والله لـيس بمعـذور حـتى ينصـر أخـاه المظلـوم ولا يُسْـلِمَهُ ولا يَخْذُلَـهُ، كمـا جـاء ذلـك في الصـحيحَيْن والترمـذي واللفـظ لـه عـن أبي هريـرة ﷺ، قـال: قـال رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم: "**الْمُسْـلِمُ أَخُـو الْمُسْـلِمِ لاَ يَخُونُـهُ وَلاَ يَكْذِبُـهُ وَلاَ يَخْذُلُـهُ كُـلُّ الْمُسْـلِمِ عَلَـى الْمُسْـلِمِ حَـرَامٌ عِرْضُـهُ وَمَالُـهُ وَدَمُـهُ التَّقْـوَى هَـا هُنَـا بِحَسْـبِ امْـرِئٍ مِـنَ الشَّـرِّ أَنْ يَحْتَقِـرَ أَخَـاهُ الْمُسْلِمَ**"[21]، وفي رواية مسلم: "**لا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ**".[22]

---

[21] البخاري (6064) مختصراً، ومسلم (2564)، والترمذي (1927).
[22] (2564)

وإنّ الله ناصرُ دينِهِ، وما نحن إلا حلقةً في طريق النصر، وإنّا والله منصورونَ بإذن الله بإحدى الحُسْنَيَيْن إن نحن ثَبَتْنَا على الإيمان والإخلاص، نسألُ الله الثبات.

والمجاهدونَ منصورونَ بإذن الله، سواءٌ رَأوا النصر بأنفسهم أو بِمَن ورائهم أو بما يجعله الله على أيديهم من الفتح والخير حتى وإن قُتِلُوا عن آخرِهِم.

ولكن أنت أيها المؤمن؛ انظر موقعك وحدّد عملك وبادر بالجهاد بما تستطيع، فالخوف ليس على المجاهدين ولكنه والله عليك أن يصيبكَ ما حذر الله بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)﴾ [التوبة: 24].

ولا شَكَّ أنك قادرٌ على نُصرة المجاهدين بأيّ سبيلٍ من السبل التي بَيَّنَها النبي ﷺ – كما عند أبي داود وأحمد– عن أنس رضي الله عنه إذ قال: "**جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ**"[23]، فأنت أيها المسلم؛ حتى تنجو من الفسق ومن وَعيد الله لا شَكَّ أنك قادرٌ على جهاد الكفار إما بنفسك أو بمالك أو بلسانك.

وقد تقول: أنا معذورٌ شرعاً عن الجهاد بنفسي، ولا مالَ لي أُجاهدُ به، ولا عِلْمَ عندي فَأُحْسِنُ الكلامَ في جموعِ المسلمين.

نقول لك: إذا كنت من المعذورين بجهاد النفس فَحَرِّض المؤمنين على النفير، وإذا كنت لا تملك مالاً فاجمَع المال من المحسنين للمجاهدين أو حَرِّض على بذل المال لِمَن يوصله للمجاهدين، وإذا كنت لا تُحْسِنُ الكلام، فلا شَكَّ أنك تُحْسِنُ نشر كلام أهل العلم وكُتُبِهِم وأشرطتهم بين الخاصّ والعام وتُحْسِنُ نشر أخبار المجاهدين، وتُحْسِنُ الذَّبَّ عن أعراضهم، والطرق التي يستطيع كُلُّ مسلمٍ الجهادَ بها كثيرةٌ جداً يَطولُ المقام بعرضها.

[23] أبو داود (2504)، وأحمد (12268) واللفظ لهما، والنَّسائي (3096).

وأما من رضي بالسكوت فقط فإن الله تعالى يقول له ولأمثاله: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38)﴾ [محمد: 38]، وقد تَوَعَّد الله سبحانه وتعالى الساكت في مثل هذه الأيام بما جاء عند أبي داود وأحمد واللفظ له عن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاريين رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: **"مَا مِنْ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا عِنْدَ مَوْطِنٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ عز وجل فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنْ امْرِئٍ يَنْصُرُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ"**.[24]

نسأل اللهَ جَلَّت قُدْرَتُهُ، وتَعَالَت عَظَمَتُهُ أن يُرِيَنَا الحقَّ حقاً ويرزُقَنَا اتِّبَاعَهُ، وأن يُرِيَنَا الباطلَ باطلاً ويَرْزُقَنَا اجْتِنَابَهُ، وأن يُعَلِّمَنَا مَا يَنْفَعُنَا وأن يَنْفَعَنَا بما عَلَّمَنَا، وأن يُوَحِّدَ صفوفَ المسلمينَ وأهلِ العملِ للإسلام منهم خاصةً، وأن ينصرَ بهم دينَهُ ويُعْلِي بهم كَلِمَتَهُ، إنه سَميعٌ مُجيبٌ.

بيت المقدس

[24] أبو داود (4884)، وأحمد (16117).